سِيَرٌ إعْلاميَّات

ماما نِعَم
وأربعُونَ عامًا
صحافة

نعم الباز

لم أكن أدري وأنا استمتع بخطواتي الصغيرة على الحشائش الخضراء.. لم أكن أدري وأنا أرفع رأسي لأسعد بطرح النخلة.. لم أكن أدري وأنا أودع أبي وصحبه عند ذهابهم إلى الحجاز... لم أكن أدري وأنا أضع على صدري قلباً من الورق مكتوباً عليه الجلاء بالدماء والحماس يملأ قلبي في الأربعينيات وأهتف مثل إخوتي الكبار من أجل جلاء الإنكليز.. لم أكن أدري وأنا ألقي بالرياحين بيدي الصغيرة على جنودنا البواسل الذاهبين لتحرير فلسطين عام ٤٨...

لم أكن أدري وأنا أستمع إلى عبد الناصر يعلن قيام الجمهورية وتأميم قناة السويس وبناء السد العالي... وأهتف له... لم أكن أدري أن ذلك سوف يصبح ضمن رصيدي من المواقف، من الحياة مع أيام طه حسين وعبقريات العقاد والأغاني للأصفهاني وعيسى ابن هشام ورباعيات عمر الخيام.. ودليل المرأة الذكية لبرناردشو... وطفولة نهد، باكورة نزار قباني، وشعر شوقي وحافظ والمعلقات السبع وأشعار إيليا أبو ماضي وعقود الكلام الجميل لجبران خليل جبران...

لم أكن أدري أن كل ذلك مع أرضية ثابتة من قراءة القرآن الكريم والانتماء لسورة يوسف والكهف والبقرة والرعد والنساء... والعهد القديم والعهد الجديد ووصايا موسى العشر وحياة

بحثات ٣

محمد صلّى اللّه عليه وسلم والذين معه والصراع بين علي ومعاوية... ورحلة العائلة المقدسة وبرديات الأسرات ونشيد الموتى، لم أكن أدري أن كل ذلك سوف يكون الأرض التي أزرعها وتخرج منها أزاهير كثيرة وأحياناً خناجر وتصبح عقداً غير مكتوب بيني وبين القُراء والقارئات، لم أكن أدري أنني سوف أمتهن هوايتي للصحافة وتصبح هي طريقي إلى كل الناس في حروف ضفرها الحب كثيراً والحرب أحياناً...

بداية المشوار

صفحتان من الورق الفلسكاب مكتوب عليها بخط يدي منوعات أتذكرها جيداً.. مقالة عن أول إمرأة ترأس إحدى دورات الأمم المتحدة وكانت هي السيدة فيجايا لاكشيمي بانديت الهندية التي كانت ترأس وفد بلادها هناك. ومعلومات عن نهر النيل وسطور عن أخناتون وسطور أخرى عن الفدائيين في القتال... ونكتة رسمتها لفتاة تخطب فتى وكتبت تحتها مصر سنة ألفين... كنت في الرابعة عشرة من عمري وفي الصف الأول الثانوي الفني وتخصصت في الرسم وأصبحت رئيسة لجماعة الرسم بالمدرسة... وخططت لنفسي أن أدخل كلية الفنون الجميلة لأكون رسامة... ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن فكانت الفنون الجميلة لا تأخذ الحاصلات على الثانوي الفني... فعانيت حتى حصلت على الشهادة الثانوية العامة ولكن مجموع علاماتي حال دون دخولي الفنون الجميلة... وبحثت عن الشيء الآخر الذي أحبه وأستطيع أن أتعايش معه فوجدت الكلمة فاتجهت للصحافة وحال المجموع ثانياً.. ولكن التصميم جعلني أدخل لعميد الكلية وأحكي له مشكلتي فقال لي: لو التحقت بالعمل في أي مجلة أو جريدة سوف تقبل أوراقك. وذهبت للأستاذ مصطفى أمين الذي ألحقني بالعمل في أكتوبر عام ١٩٥٥، وهكذا اتجهت إلى الصحافة عن طريق العمل في أخبار اليوم.. وكنت أتولى قراءة الإنتاج الأدبي للقُراء في مكتب الأستاذ مصطفى أمين ثم عملت في الوقت نفسه في إصدارات الدار فكنت أكتب في «آخر ساعة» في صفحة المرأة ثم في مجلة «الجيل» وفي «جريدة الأخبار»، بداية من عام ١٩٥٥.

ومن المآزق التي أذكرها جيداً في بداية عملي الصحافي عام ١٩٥٦ أن مدير تحرير «آخر ساعة» طلب مني كتابة موضوع عن الوعاظ في مصلى النساء في أحد المساجد واخترت مسجد السيدة زينب رضي اللّه عنها. وحينما دخلت بين السيدات واستمعت إلى الواعظ تعجبت من الخرافات التي يلقيها عليهن فقررت إحراجه فأخذت

بعض زميلاتي من الجامعة واتفقت معهن على بعض الأسئلة الدينية الاجتماعية الهامة: مثل لماذا طلقت السيدة زينب؟ وماذا حدث بين علي ومعاوية حتى يتغلب عليه معاوية؟

وحينما سألت الفتيات هذه الأسئلة ثار الواعظ وثارت النساء: كيف تطلق السيدة زينب يا كفرة.. كيف ينتصر معاوية على عليّ..؟ وخرجنا نجري وكادوا يفتكوا بنا.. وكتبت الموضوع أنقد بشدة هؤلاء الوعاظ وأطالب بتغييرهم. وكان وقتها الشيخ الباقوري وزيراً للأوقاف ومسؤولاً عن المساجد والوعاظ وكان رجلاً سمحاً مستنيراً فغير من هؤلاء الوعاظ وقرر أن تلقى مواضيع معينة في مصلى النساء بكل مسجد... وسعدت سعادة جعلتني أبحث عن الموضوعات التي تغيّر في أساليب الحياة في المجتمع... وتوجهت إلى عمل موضوعات عن الأُسر التي تضطرها ظروفها للعمل في أماكن نائية مثل الأسر التي يعمل أربابها في حقول البترول مثل الغردقة ورأس غارب في ذلك الحين.

وبدأت أمواج القومية العربية تغيّر من اتجاه الريح في الجامعة وبدأنا كتابة موضوعات جديدة عن حياة الطلبة العرب وتفكيرهم ولكن حدث العدوان الثلاثي على مصر عند تأميم قناة السويس وشاركت في عمل موضوعات عن المقاومة الشعبية، وكفاح أهل بورسعيد والقنال وإقبال الشباب على الدفاع المدني.

وانتهت المعارك وبدأت في متابعة بناء السد العالي الذي كان نتيجة رفض البنك الدولي تمويل المشروع فكان عملاً وطنياً أثار الحماس في كل مجالات العمل وكان الإعلام يمثّل حجر الزاوية في بث روح الانتصار في الناس..

في هذه الأثناء كان عدد الصحفيات أقل من عدد الشباب وكانت ثقة القيادات الصحفية في المرأة أقل من ثقتهم في الشباب خصوصاً في السفريات النائية مثل أسوان وأبي سمبل وعند تهجير شعب النوبة.. وكنا نكافح ونعمل لنقنع الرؤساء بإثبات وجودنا بالسفر في القطارات ثم بالسيارات التي تحمل عمال التراحيل. ولم تكن وسائل المواصلات مريحة مثل الآن وكم سافرنا إلى الصعيد في قطارات أطار الهواء شبابيكها ولكن التحدي كان يجعلنا نصمم على خوض التجارب الصعبة. وهبت رياح الوحدة بين سوريا ومصر وكثرت المؤتمرات والندوات والاجتماعات بين البلدين وكان القوميون العرب ينشطون ويكافح البعثيون ليجدوا مكاناً بين الصفوف، وكانت تجربة الوحدة مثيرة قمت أثناءها بكتابة موضوعات استطلاع لتقبل الوحدة مع سوريا في الشعب المصري فكان لي ما أردت وتقبل المثقفون ذلك، أما

في القرى فقد اعتقدوا أن عبد الناصر سوف يهجِّر الفلاحين ليزرعوا الأرض في سوريا لأن السوريين أهل تجارة ولا يفهمون في الزراعة مثل أهل مصر. وكافحنا هذه المقولة طويلاً بالموضوعات والكلمات المكتوبة ولكن لأن الأمية كانت فوق التسعين بالمائة في القُرى فلم تكن تصل المعلومة بسهولة.

وكنت قد انتظمت في باب «أخبار الناس» الذي بدأه الأستاذ محمود عبد المنعم مراد والذي كان من أعمدة جريدة المصري وحينما أغلقت الجريدة في أزمة مارس بين الرئيس محمد نجيب والزعيم جمال عبد الناصر تفرق كُتّابها بين الجرائد وكان من نصيب «الأخبار» هذا الأستاذ العظيم الذي علمنا كيف نجمع الرحيق ونوصله للقُراء لأن باب «أخبار الناس» كان يعتبر جريدة صغيرة داخل الجريدة وكنا نقدم كل أنواع موضوعات الصحافة من أخبار خفيفة إلى أخبار مجتمع إلى أخبار سياسية ودبلوماسية. وتعلمنا كيف نكوّن مصادر وكيف نحتفظ بالمصْدَر وكيف نوصّل وجهة النظر.. تعلمنا كيف نختلف بفروسية ونتفق بمقدرة على الاحتفاظ بوجهة النظر وأحسسنا في تلك الفترة أن المرأة بدأت تأخذ مكانها وتنتصر بالقدرة على العمل وبالقدرة على أن تكون خيل سباق مع الرجل.. وساهم ذلك في دفع دماء جديدة في عقولنا... وبدأت أستفيد من مصادري في «أخبار الناس» وأقوم بعمل حوارات في مجلتي الجيل وآخر ساعة مع نجوم المجتمع ومع الشباب المتحمس لقضايا الساعة من خلال الشباب والكبار..

على المستوى الشخصي كانت علاقاتي بزملائي مثل زميلاتي تماماً.. لم يدق قلبي لأحد لأنني كنت مصرة مع سبق الإصرار والترصد على أن نكون جميعاً زملاء.. وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً أحسست أنني كنت أحصن نفسي حتى لا تعطلني عواطفي ومنطلقات العلاقات عن النجاح في عملي الصحفي.

وتزوجت من ابن عمتي بعد فترة إعجاب بيننا التقينا فيها عند الفنون التشكيلية التي ما زالت إلى الآن تشكّل وجداني وكذلك عند حب الموسيقى التراثية والمسرح والشعر. كان ذلك في العام ١٩٥٧.

وكان زوجي رحمه الله عطوفاً معي محباً لنجاحاتي حتى أنه عاونني حينما قمت بمغامرة صحفية كانت من الخبطات التي قدمت تغييراً هاماً من أجل الحفاظ على قيمة آثار مصر حيث كان المترجمون في ذلك الحين من سكان نزلة السمان حول الهرم وكذلك من سكان الأقصر وسوهاج حول المعابد والمقابر يجمعون بين المعلومة الحقيقية والفهلوة فتقمصت شخصية سائحة هندية ولبست الساري

ووضعت النقطة الحمراء وتجولت بين آثار الجيزة ثم الآثار الإسلامية في القاهرة وفي خان الخليلي وكان الأستاذ أحمد يوسف رحمه الله يقوم بتصويري عن بعد. كان موضوعاً مثيراً على ست صفحات في مجلة الجيل، وكان من نتيجته أن صدر قرار وزاري بأن لا يتولى مهمة الترجمة للسياح إلا من يجيد دراسة الآثار المصرية سواء مصر القديمة أو الإسلامية... واجتمع المترجمون وانتظروني على باب «أخبار اليوم» ولكنهم لم يتعرفوا عليّ وإلا لكانوا فتكوا بي.

وأحسست بالنصر الصحفي خصوصاً وقد حقّقت نتائج تعود بالنفع على المجتمع والناس تُشعر الإنسان أحياناً بالسعادة وتنسينا التعب.

أصبحت في قدرة غير بسيطة على توصيل ما أراه للناس واستطعت أن أكون دائرة من العلاقات العامة جعلتني أستطيع أن أصل إلى الخبر السياسي من مصادره وكذلك الخبر الفني والاجتماعي وكذلك المشاكل الاجتماعية.

أحسست أنني لا بد أن أثري حياة النساء سواء بتكثيف المعرفة أو بتوصيل ما يرتفع بالأداء.. أحسست أيضاً بأن العلاقة بيني وبين القارئ لا بدّ أن تكون جدلية أوصل همومه أيضاً لمن يريدون وأحل مشاكله بينما كانت تواجهني كثيراً قدرة البسطاء على الكذب في الإلحاح للوصول إلى مطالبهم.

الكتابة للطفل

وكانت حياتي رغم صعوبتها تحوي لذة وسخونة دائمتين حينما كنت أماً لأول مرة. فقد أصبحت مسؤولة في نهاية عام ١٩٦٠ عن ربع صفحة كاملة للأطفال في جريدة «الأخبار» اليومية أكتبها أسبوعياً.. كانت مسؤولية صعبة أحسستها من اليوم الأول حيث الكتابة للطفل أصعب من الكتابة للكبار لأن الكاتب عليه أن يتحرك في مجموعة صغيرة من الألفاظ وهي محصول الصغار من سن ٦ سنوات حتى ١٤ سنة. وكانت مهمتي صعبة لأنني بدأتها بعد رجل من روّاد الكتابة والتحاور مع الطفل من خلال الإذاعة.. وكنت مهتمّة بالتغيير حيث العنوان «أخبار الأطفال» كان يكتب حكاية وبعض المعلومات ومسابقة للكلمات المتقاطعة مع صورة ثابتة لطفل في أعلى الصفحة، فكان اهتمامي منصباً على كلمة أخبار الأطفال فوضعت فيها جزءاً عن أخبار المدارس والنوادي والأطفال المتفوقين والعباقرة في الرياضة البدنية والفنون التشكيلية وقدمت مسابقات جوائزها للأم والأب حتى أُعلّم الطفل العطاء.

وأهم ما قمت بتغييره بالنسبة للكتابة للطفل أنني كنت أول من كتب الكتابة

السياسية للطفل لأنني واجهت مأزق التواجد في جريدة يومية صفحتها الأولى فيها عنوان عريض «مانشيت» سياسي فلا يمكن أن أتجاهل ذلك عند الكتابة للطفل.. فشرحت للأطفال عن طريق القصص أو المقالات البسيطة معنى عدم الانحياز والوحدة والقومية العربية وكتبت لهم عن كل ما يحدث من تغيير في العالم حتى لا ينفصل الطفل عن مجتمعه.

وحينما نجحت صفحة الأخبار طلب مني القائمون على تحرير مجلة الجيل كتابة صفحتين للأطفال في المجلة فكانت متنفساً آخر من نوع جديد للأطفال شغلتني أيضاً في مهمة حيث كانت المواضيع المصورة والتجوال بالطفل من خلال الصورة والمعلومة يعرّفه على بلده جيداً وعلى العالم من حوله.

كان الجهد كبيراً وأنا أم وزوجة وتلميذة بالجامعة ولكني كنت تقريباً أنام سويعات بسيطة حتى أستطيع أن أقدم كل ما أحلم به من خلال الكلمة المكتوبة وكنت أوقع مقالي للأطفال باسم ماما نعم.. وانتشر الاسم، ولا أخفي سعادتي بانتشاره، بل لا أخفي سعادتي بتحميل الناس لي بعض ما يحبون لأطفالهم وكنت أحب أن أكون عند حسن ظنهم.

كنت أضع في اعتباري الحالة الاقتصادية للناس لذلك كنت سعيدة أن تجد الأسرة نفسها في مجلة واحدة وجريدة واحدة بحيث يقرأ الأب والأم والأولاد. ولكن يصدمني شيء عجيب وهو أن بعض الآباء والأمهات كانوا يرسمون ويكتبون بدلاً من أطفالهم فكانت حالة من الفسق أفزعتني جداً.

مع الكبار في آخر ساعة

وكنت قد تحولت تماماً إلى الفكر الصحفي بحيث أصبحت أعمل باستمرار وليس خلال وجودي في الجريدة فقط.. فقد كان عقلي دائم العمل وأصبحت أشعر أنني في لحظات إبداع دائماً من أجل تقديم الجديد للقارئ...

وكان رؤساء التحرير يُسهّلون الأمور على المحررين ويرحبون بكل فكرة جديدة تثري المجلات وكنت مرتبطة بمجلة آخر ساعة منذ طفولتي فكنت أفكر لها في كل جديد.

في الستينيات فكّرت في أن أطرق باباً جديداً للمشاهير هو زوجاتهم وقدمت الفكرة لمدير تحرير آخر ساعة في ذلك الحين وهو الصحفي الراحل النابغة صلاح حافظ فوافق فوراً وقمت بنشر حوارات كان معظمها صعب المقدمات حيث لم تكن

تلك السيدات قد تحدثن من قبل عن أزواجهن، ولم يفعلن ذلك من بعد، وهن: حرم د. طه حسين، حرم الأستاذ أحمد رامي، حرم د. يوسف إدريس، حرم المقرئ الشيخ مصطفى إسماعيل، أشهر مقرئ في العالم العربي في ذلك الحين، وحرم الأستاذ محمد عبد الوهاب وحرم الأستاذ إحسان عبد القدوس، وحرم الفنان أحمد مظهر وحرم الدكتور أنور المفتي، وكان أشهر طبيب، وحرم فضيلة الشيخ الباقوري، وحرم الكاتب الكبير يوسف السباعي.

وكان لهذه الحوارات ضجة في ذلك الحين وواجهتني صعوبة شديدة في الحوار مع حرم الدكتور طه حسين حينما واجهتها بعدم تعلّمها اللغة العربية مع أنها عاشت نصف قرن مع عميد الأدب العربي. وهنا تضايقت جداً وكادت ترفض إكمال الحوار لولا وجود كريمتها معنا.

وكنت في الوقت ذاته أراسل مجلة في بيروت كانت من أجمل المجلات وذات مستوى رفيع في موادها وطباعتها هي مجلة «شهرزاد» التي أغلقت بعد ذلك. كنت أرسل لها حوارات مع كبار الفنانين والأدباء مثل فاتن حمامة وشادية وأحمد مظهر وغيرهم.

كنت دائماً أحب التغيير في الصيغ الصحافية. وهنا أحب أن أقول إن ما قمت به يشكّل نوعاً من الإبداع مثل التأليف الموسيقي والرسم حيث كنت أحب تكوينات جديدة من الحوارات بين مشاهير لم يلتقوا قبلاً، مثل فريدة فهمي وإحسان عبد القدوس وعبد الوهاب ويوسف إدريس وأنيس منصور وسعاد حسني... وماجدة وكمال الشيخ وغيرهم ثم أقوم بعمل موضوعات بين الكاتب وأبطال قصصه مثل نور الشريف ونجيب محفوظ وسعد وهبه وتوفيق الدقن.. كانت هذه الموضوعات تُشعر بأنني أقدم وجبة مخالفة للقارئ وتشعرني في الوقت نفسه بأنني أقدم «فورم» أو شكلاً جديداً غير مألوف للعمل الصحفي.

وفي أوائل السبعينات بدأت كتابة يوميات الأخبار وفي واقع الأمر أنني لا بد أن أورد حقيقة هنا في شهادتي عن مسيرتي وهي أنني لم أسعَ إلى شغل مساحة أو الحصول على منبر. دائماً كانت الأشياء تصل إليّ فحينما أخذت زاوية الأطفال كانت القصة التي قدمها الأستاذ الكبير محمد محمود شعبان لم تُعجب رئيس التحرير فطلب مني أن أكتب غيرها ثم طلبوا مني تحرير الزاوية كلها بعد أن أصدروا قانوناً بعدم التعامل مع كُتاب من الخارج من باب التوفير.

أما الكتابة في مجلة «آخر ساعة» فقد كنت أقدم أشكالاً جديدة من التحقيقات لم يقدمها غيري وكذلك أسماء كبيرة كانت تفرض نفسها على المجلة.

أما كتاباتي ليوميات الأخبار في أوائل السبعينات، فقد كتبت خطاباً للأستاذ موسى صبري أصف له فيه وأعلق على أحد أسفاري فأعطاه لأستاذي عبد الوارث الدسوقي ليقرأه وفوجئت بالخطاب منشوراً في اليوميات، وبالأستاذ عبد الوارث يقول لي: سوف تكتبين كل أسبوعين في يوميات الأخبار. وكان في كل مرة يسند إليّ عملاً جديداً فكانت تنتابني أحوال غريبة ما بين السعادة والخوف لأنني أفاجأ بوضعي في أماكن أساتذة عظماء أجلاء أمثال سلامة موسى والمازني والعقاد وكامل الشناوي وعلي أمين ومصطفى أمين وموسى صبري.. لذلك كنت حينما أمسك القلم وأكتب اليوميات أشعر أنني فلاحة أمام قطعة من الأرض وأنني يجب أن أزرعها قمحاً للبسطاء ولا يمكن أن أزرعها «كرازنيتم» للصفوة... أحس دائماً بعاطفة نحو البسطاء الذين هم في حاجة دائماً للري الدائم.

من التحديات التي واجهتني في حياتي الصحفية، حيث هذا العمل يتطلب التفرغ، أن ابنتي أصيبت بشلل الأطفال وكان علينا أن نواجه هذه المشكلة القاسية نفسياً واقتصادياً واجتماعياً وقررت الاستقالة للتفرغ لابنتي ولكن أستاذي مصطفى أمين رفض تماماً وقال لي إنني أحتاج لعملي لأقف بجانبها وحتى لا أكون دائمة العصبية لوجودي دائماً معها وعلى أن أنظم وقتي وأنها لا بد أن تعيش حياتها كطفلة عادية... وفعلاً مثَّل لي عملي درعاً يحميني من اليأس وانفتاحاً على عالم المرضى.

وبدأت السفر إلى إنكلترا عام ١٩٧٠ لعرض الطفلة على الأطباء الذين قرروا أنها محتاجة لجراحة عندما يصل عمرها للخامسة عشرة ففكرت في العمل في إنكلترا حتى أدخل في التأمين الصحي وأستطيع أن أفيد ابنتي في علاجها من خلال مظلة التأمين الصحي. وفعلاً عملت في أكبر دار نشر في إنكلترا وبها أكبر قسم للأطفال في العالم والـ «I.P.C magazin» التي كانت تصدر وما زالت الديلي ميرور والـ Woman وتصدر ٣٥ مجلة أسبوعية للطفل و٢٢ مجلة شهرية و٣٢ كتاباً سنوياً وظللت أعمل طوال أشهر الصيف في الأعوام ٧١، ٧٢، ٧٣. وكنت عضواً في اتحاد الصحفيين الإنكليز في لندن ولكن حينما جاء موعد جراحة ابنتي كان اللّٰه قد فتحها من طريق آخر وعمل والدها كبيراً لخبراء الأمم المتحدة في صنعاء باليمن وسافرنا وأُجريت الجراحة وكنت أراسل الأخبار من هناك. وأحسست وقتها أن اللّٰه

أعطى زوجي هذا العمل لأنني لم أقف مكتوفة اليدين وإنماء سعيت وتعبت فكافأني اللّه.

وكانت تجربة استفدت منها جداً حيث أحسست الفرق بين علاقة القارئ الإنكليزي بالجرائد والمجلات وعلاقة القارئ العربي بها وكذلك بالدور الهام للتغيير التكنولوجي في الصحافة وكذلك غزارة المعلومات وأسلوب العمل بين الأقسام المختلفة.

وكانت مسؤوليتي قد تحددت تجاه التغيير الاجتماعي فاقتحمت مشاكلنا الاجتماعية مثل مشاكل المرأة في الريف ومشاكل الطفل المصري والطفل العربي، حيث يعيشان غياباً علمياً واجتماعياً عن أطفال العالم وكذلك شعرت بمدى تأثير الأمية على خطط التنمية والزيادة السكانية ثم الفقر... وزادت مصداقيتي عند القارئ لإحساسي بأهمية منبري في كتابة اليوميات ومنبري للطفل. وخوضي معارك كثيرة من أجل حماية تقاليدنا وقيمنا وعاداتنا.

كانت مسؤوليتي عند الكتابة للطفل في إطار شديد الحساسية حيث كنت أشعر أنني أشارك اللّه سبحانه وتعالى في تكوين البشر كما كنت أشعر أن احتياطي مصر ليس بترولاً ولا ذهباً ولا غابات ولكن بشر يصنعون الحياة على ضفاف النيل. ووصلت إلى معنى مقولة ظللت أرددها لأبعث الثقة في ناس بلادنا وهي أن مصر هبة المصريين وليست هبة النيل فالنّيل يمر في عشر دول! لماذا كانت الحضارة هنا؟ إذن لا بد أن هناك كيمياء خاصة تجعله يشارك في صنع الحضارة.

ووصلت بعد أن عملت في كل المجالات إلى قناعة بأنني يجب أن أعمل على خطين متوازيين وأضيف بهما مقالات سواء للصغار أو الكبار، وهما الانتماء، وشرف العمل وزيادة الإنتاج بحيث يكفينا فلا نستورد الأشياء التي ننتجها في بلادنا.. وأن نحارب الاستعمار بالطعام.

ودخلت في معارك كثيرة مع القائمين على الإنتاج الزراعي وكانت أهمها معركة القمح إذ كنا نشتري القمح من أمريكا بأضعاف سعره في مصر، فكتبت لماذا ندعم الفلاح الأمريكي ولا نشجع الفلاح المصري ونرفع سعر الشراء منه فينتج أكثر. وكان من أهم مقالاتي التي تركت صدى كبيراً مقالٌ بعنوان «القمح والحرية» حيث كانت المائدة المصرية تحتوي على خمسة أرغفة منها أربعة أرغفة مشتراة بالدين ورغيف واحد من إنتاجنا. وانتقدت سياسات زراعة الكماليات على حساب الضروريات وكذلك الخطأ في عمل الصوب الزراعية في بلد مناخه معتدل وظلت

المشاكل كثيرة بيني وبينهم ولكن لم أترك الحملة الصحفية إلاّ بعد أن ارتفع إنتاجنا من القمح ووصل عدد الأرغفة المصرية إلى ثلاثة من إنتاجنا مقابل اثنين من الخارج.

وظلت القضية الفلسطينية والسلام غير السوي مع إسرائيل على قمة أجندتي طوال أعوام عملي الصحفي وحتى الآن، وما زلت مفتوحة الحواس أنبّه دائماً على خطورة تضليل الناس والسير بهم نحو سلام غير عادل.

كنت أشعر أن أجراس الخطر لا بد أن تدق للناس لأنهم أصحاب الحق الحقيقيين في توجيه الدفة نحو الإصلاح في بلادهم.

ارتبطت الحرية عندي بعدم قبول مناصب صحفية تجعلني ارتبط بالمنصب وأخاف عليه، ففضلت الوقوف مع قلمي ومساحتي خارج المناصب حتى لا تتأثر مواقفي من المشاكل العامة. واجهت الغياب العربي في الكثير من قضايانا وخصوصاً قضايا الطفولة وقوانين حماية الطفل، وحاولت العمل من أجل حماية الطفل سواء من خلال الكتابة أو من خلال الاشتراك في العمل الأهلي التطوعي... والمقالات المناسبة لا تجدي في العمل العربي بقدر ما تجدي المشاركة في العمل الأهلي العربي.

أردت أن أكثف الإيمان بأن مشكلة حصار العراق وإضعاف العراق تدخل ضمن خطة محكمة لتحقيق فكرة «من النيل إلى الفرات». ولكن لم أجد صدى لدعوتي الكُتّاب للقيام بحملة صحفية تخرج من مصر.. إن حالة اليأس التي تحيط بموضوع العراق وقفت حجرة عثرة أمام تحقيق ذلك.

لاحظت أن القُراء والقارئات يهتمون ويتابعون باهتمام أكبر المقالات التي أكتب فيها عن تجارب صحيّة ساخنة مثل عملية جراحية لابنتي المريضة بشلل الأطفال، أو وفاة أمي أو أخي الأكبر وعند فقد زوجي.

كذلك يحبون ويتذكرون ويناقشونني عند مقابلتي لهم في المقالات العاطفية التي أكتبها عند عودتي من العمرة أو الحج وهذا راجع لأن قُرائي يتأرجحون بين المثقفين والذين يقرأون لمجرد فك الخط.

مشكلة محو الأمية أطوف حولها وأناقشها وأعرضها بشتى صور العلم الصحفي من أخبار وريبورتاجات مصورة ومشاكل نتجت عن مواجهة الأمية ولكن الزيادة السكانية تقف دائماً عائقاً أمام خطة محو الأمية. فحينما بدأت العمل الصحفي كانت الأمية بين النساء ٩٥٪ وبين الرجال ٩٠٪ والآن وبعد أكثر من ٤٤ عاماً من

العمل الصحفي وصلت الأمية بين النساء إلى ٧٨٪ وبين الرجال إلى ٧٠٪. والتقدم كان لأن بعض الذين أقبلوا على التعليم اعتبروه استثماراً وعملاً مضموناً، وكانت تواجهني في القُرى مشاكل كثيرة لإقناع النساء والبنات الصغيرات بأهمية التعليم.. لدرجة أنني في عام ١٩٩٠ أجريت مسابقة للصغار في فترة الإجازة، فطلبت من كل صغير حصل على الإعدادية، أن يمحو أمية رجل وامرأة كبيري السن، وسوف ندفع لهم مكافأة في نهاية الصيف..

ونجحت الفكرة إلى حد ما ولكن أجمع الصغار على أن الكبار الذين يعملون في مهنة مثل التجارة البسيطة لا يقبلون على التعليم.

في عام ١٩٨٥ أحسست أن الوحدة العربية لا يمكن أن تتم إلاّ بإيمان راسخ من أبنائها فأجريت مسابقة للصغار بمشاركة الإذاعة والتلفزيون تحت عنوان «طارق في بلاد العرب» تيمناً باسم طارق بن زياد وهي معلومات عن الدول العربية والفائزون العشرة من مصر يزورون بلداً من البلاد العربية، ونجحت المسابقة نجاحاً كبيراً حيث كان مردود أول رحلة إلى العراق أن الأطفال العراقيين والمصريين حينما التقوا لم تمضِ دقائق حتى كانوا يتعاملون بسهولة.. وبعد العودة أصبحوا أصدقاء بالمراسلة.

وكذلك رحلة المملكة العربية السعودية ورحلة المغرب.

استطعت أن أجعل من الصحافة وعاء لتحقيق أحلامي على المستويين العام والشخصي، وكلها أحلام جمعها وعاء واحد هو التغلب على المشاكل الاجتماعية مع إطلالة على الغرب وعلى تراثنا وعاداتنا وموروثاتنا.

وبنظرة للصحافة كصناعة أفكر دائماً في كيفية جذب رجال الأعمال من أجل الإنفاق على تلك الصناعة من دون انتظار منفعة خاصة بحيث يكون التنوير من الناحيتين هو الهدف.

وشهادتي من خلال مشوار مضنٍ لذيذ لخمسة وأربعين عاماً من العمل الصحفي، اختمها بأن المرأة العربية لا يهمها الإرهاق أو حتى العذاب في سبيل تحقيق طموحاتها وإثبات وجودها بتحقيق إنجازات وصمود في مواقف تهدف أكثر ما تهدف للمحافظة على صلابة ومصداقية هذا المجتمع الذي يستحق البقاء. وأن المرأة العربية أحرص ما تكون على مجتمعها، ولديها طموحات كثيرة لرفع مستوى هذا المجتمع.

وقبل أن أنهي شهادتي أحب أن ألقي الضوء على تحد واجه المرأة في الحقل الصحفي حيث أن منصبي رئاسة تحرير جريدة يومية ونائب رئيس التحرير المسؤول عن طبع الجريدة، هذين المنصبين ظلا وقفاً على الرجال فقط. وقد قال لي مرة الأستاذ موسى صبري وهو يرشحني لمنصب نائب رئيس تحرير الأخبار أنه منصب بدون تنفيذ ورفضت وقلت له إن منصب نائب رئيس التحرير لي كأنهم يعطون جنرال رتبة صول!! ووصل النهر إلى قرب المصب بنظرة ما زالت ثائرة، فالحرف يجب أن ينضم للحروف ليوصل رسالة سواء للناس أو عن الناس.. وأن التغيير والثورة من أجله يجب أن يكون على سن التعليم..

وأن المرأة في العمل الصحفي لا تستريح.. ولكنها تسعد بكل ما تنجز وكل ما له أثر في مجتمعها.

هذه هي شهادتي على مسيرتي الصحفية والتي أرجو أن تكون قد أفضت إلى نوع من الدليل لنساء غيري يَسِرْنَ على الدرب من أجل مجتمع ما زال ذكورياً حتى النخاع.

محطّات في السّيرة

سونيا بيروتي

لم أكن في وارد رصد ما يدور بخلد الناس من حولي. ولا تصوّرت، أو اهتممت بتصوُّر نظرتهم إلى فتاة تعمل في وسائل الإعلام. السبب الأساسي كان أني أعمل لكي أعمل. كانت الصدفة هي الباب الذي فُتح أمامي لأدخل أجواء الصحافة المكتوبة.

قبل الستينات، لم يكن في جامعات لبنان فرع للإعلام. درست الحضارات الشرقية. ثم تملكتني الحيرة فيما يمكن أن أمتهنه بما لديّ من معلومات.

كلُّ ما أعرفه عن طاقاتي كان حبّي للكتابة. أي نوع من الكتابة كان يستهويني كأداة للتعبير عن نفسي. ويوم توجّهت نحو الصحافة، لم أكن أعلم أن الكتابة الصحفية ليست من نوع التعبير عن الذات، بل هي أشبه ما تكون بمرآة تعكس واقع الأحداث والناس. أو هكذا يجب أن تكون.

حصولي على عمل صحفي كان في غاية السهولة. أعي اليوم أن كوني فتاة قد أسهم في تسهيل المراحل وتقصيرها.

طَلَبَ إليّ صاحب الدار، الأستاذ سعيد فريحة أن أكتب له رسالة. جلست على حافة مكتبه العريض ورحت أكتب. كتبت طويلاً قبل أن يتنبّه إلى وجودي، فيقول هذا كاف، ويمدّ يده لاستلام الرسالة.

قرأ بسرعة بضعة سطور وأعرب عن موافقته بعبارة: اشتغلي معنا.

اشتغلت وشعرت بحماسة للعمل، راحت تزداد بمرور الزمن. حماسة لاكتشاف كنه اهتمامات الناس وأسباب خياراتهم في الحياة. وحماسة لمعرفة مسبِّبات الأحداث وتطوراتها ونتائجها على المجتمع.

لم أكن في وارد رصد ردّات فعل من حولي على اختياري العمل الصحفي، وقت كان عدد الصحفيات لا يزيد عن ثلاث. كنّ الأديبة املي نصر الله زميلتي في دار الصياد، وجاكلين نحاس في جريدة الحياة والثالثة أنا.

أقصد بالصحفيات المتحركات مع الأحداث. الصحافة بمعنى حمل قضية ومتابعة تطوّراتها في مجلة متخصِّصة، كما فعلت الأديبة ادفيغ جريديني شيبوب في مجلة «صوت المرأة»، واللواتي سبقنها من الرائدات كجوليا طعمة دمشقية وسلمى صايغ على سبيل المثال، لم تكن تلك صحافة بمفهومنا لها اليوم.

كان رأسي معبّأ بنظريات جمعتها من صفحات الكتب. كتب سياسية وتاريخية واقتصادية وأدبية.

أي كان العالم كما يجب أن يكون أو كان موجوداً في بعض واقعه، مع تخفيف أثر الوقائع الأخرى أو سترها أو إخفائها تماماً.

طُلب إلي مرة أن أُجري حواراً مع أحد المرشحين للنيابة. كان موسم انتخابات والدعاية للمرشح عبر حوار صحفي أمرٌ مألوف.

قبل أن أتوجّه إلى المرشح استدعاني المسؤول في الصحيفة وطلب أن يطّلع على الأسئلة التي أعددتها، قرأ الأسئلة وقامت قيامته على سذاجتي.

كنت نويت أن أسأل المرشح عن برنامج حزبه، أو برنامجه الخاص، الذي سيتولّى الدفاع عنه وتشريع قوانين تدعمه، فيما لو نجح ومثّل الشعب اللبناني.

المسؤول عن الجريدة بقي دقائق طويلة يردّد «برنامج؟» «قال برنامج قال!».

ثم أفهمني أن هذا المرشّح زعيم أباً عن جد ورئيس عشيرة وأنه أخيراً يجهل أدوات وضع البرامج، أي إنه لا يقرأ ولا يكتب.

هكذا أدخلتني الصحافة إلى المخفي خلف ستائر المظاهر.

وكنت كلما اكتشفت جديداً زدت رغبة في الاكتشاف.

أتذكر ملاحظات لي على ردّة فعل والدتي وصديقاتها. لم يكنّ متفهمات ولا

موافقات على خياري. كان عليّ بنظرهنّ، أن أفكّر بالعريس لا بالشغل، وخصوصاً بشغل الصحافة.

في هذه المهنة لا دوام محدداً، والعمل لا ينتهي بنهاية النهار. وقد يطول ليلاً إلى حدّ لم يكن مجتمعنا يتقبّلُه في تلك الفترة من الزمن، غير البعيد لكن المختلف عن الزمن الحالي.

عدم معرفتي بطبيعة العمل الصحفي جعلت فضولي إلى معرفتها بلا حدود. خلال السنتين الأوليين نفّذت كل ما طُلب مني الكثير والمُنوّع. عملت بترجمة الأخبار وتغطية المناسبات ومحاورة الشخصيات السياسية والفنية والاجتماعية على اختلاف مواقعها. وعملت في التحقيقات على تنوّعها. أذكر أني حقّقت في جريمة قتل، وفي التجارة بالأسلحة وفي كل ما يمكن أن يخطر ببال الإعلام المكتوب.

تعلّمت المهنة وأنا أُمارسها، وأنا أتنقّل بين أقسامها من تحرير إلى صفّ إلى تصحيح إلى إخراج إلى تصوير، وإلى أن يصير نصّي جزءاً من صحيفة أو مجلة تصدرُ فتوحي إليّ بأن نصّي هوغيره، أو هو اكتسب هالة لم تكن له.

هذا لا يعني أن المسؤولين عن منشورات دار الصياد وقتئذٍ لم يحاولوا حشري في زاوية يسمّونها نسائية. كانوا يطلبون مني متابعة أخبار المجتمع ونشاطات الجمعيات الخيرية. وأحياناً يخطر في بالهم، طالما العنصر الأنثوي صار موجوداً بينهم، أن يخصصوا زاوية للتربية وأخرى للأزياء وللتجميل وللطبخ. كنت أرفض الخوض في هذه الأمور لسببين: الأول هو تمرُّدي على حصر وظائف المرأة بها. الثاني هو كوني أجهلها تماماً ولم تثر فيّ فضولاً يدفعني للتعرُّف إليها. بين أخذ ورد ومساومات متفاوتة الأهمية، اقتنع الزملاء بأني هنا إنسان صحفي، لا هو ذكر ولا أنثى، في مكان عمله. العنصر الحاسم في إقناعهم كان غزارة إنتاجي ونوعيته، وعدم تردُّدي في القيام بأية مهمة مهنية يطلبونها مني.

تصوّرت أن الكلمة يمكن أن تحرّر المرأة. ولما عرض عليَّ العمل في مجلة نسائية تحمّست. لم أكن حتى ذاك اليوم قد طالعت مجلة نسائية. اشتريت ما كان متوافراً من المجلات الأجنبية في السوق اللبنانية، وقرأت. كانت خيبتي كبيرة.

قرّرت أن أعمل في مجلة محلية تكون مختلفة عن تلك المجلات، وتحمل قضايا الناطقات باللغة العربية.

لا أرى لزاماً لتعداد أسباب فشلي في تنفيذ قراري. أهم تلك الأسباب معروفٌ كان وسيبقى. إنه نظامنا السياسي الطائفي وتقاليدنا الاجتماعية الطويلة العمر بغثِّها وسمينها، ولم يجرؤ أحد بعد على التنكُّر للسطحيّ منها، ولا لِمَا لم يعد منسجماً مع العصر.

أما السبب الأهم مما هو مذكور أعلاه فهو تمويل المجلة. التمويل مصدرُه الإعلان أولاً وأخيراً.

المجلة النسائية كي تجذب الإعلان لا بدّ لها من صفحات ملوّنة وبذخ في الورق والإخراج والزخرف. هذا يكلف ثمناً أرفع من ثمن نسختها. بل إن بيع أعداد كبيرة من نسخها يراكم خسائرها.

لا يُعوِّض هذه الخسائر سوى الإعلان. والإعلان في مجلة نسائية يركّز على مساحيق التجميل، والأنظمة الغذائية ضامنة الرشاقة، والعناية بالشعر، والأناقة، وباختصار ما يخاطب شكل المرأة.

وهذا مناقض لتوجُّهٍ تحريريّ يقصد توعية المرأة على إنسانيتها وحقوقها، ومآسي أوضاعها الاجتماعية والقانونية لا على أنوثتها فقط.

والإعلان المُموِّل لا تعنيه المرأة الواعية الحرّة التي تتّكل على استثمار طاقاتها الذهنية والعلمية بدلاً من استثمار شكلها الخارجي.

من يريد برهاناً ملموساً على ما قلته، ما عليه سوى اقتناء مجلة نسائية تقليدية حديثة أو قديمة وتقليب صفحاتها.

على صعيد المرأة نفسها عرفت مرارة الفشل أيضاً. أقمت علاقة شخصية بيني وبين كل قارئة شاءت أن تقترب مني. زارتني كثيرات في المكتب وتحادثنا وتصارحنا وتوافقنا على معارضة كل ما يسلب المرأة حقوقها وحريتها الفردية. لكن بين الفكرة وتنفيذها عوائق يستحيل تجاوزها. فهمت أن أقل تغيير في الأوضاع النسائية يستلزم تغيير نظامنا السياسي وقوانين الأحوال الشخصية والمفاهيم التقليدية الراسخة. أي تغيير كل ما هو قائم ومستمر. وفهمت أن ما نطالب به ما يزال يشبه المستحيل. في الإعلام المرئي خضت تجارب مختلفة، صورة المرأة التقليدية المسماة «أنوثة»، هي أيضاً راسخة في الأذهان. المرأة الأنثى هي الحلوة المتبرِّجة ذات الشعر الطويل المنسدل ومرتدية الثياب التي تبرز محاسن جسمها وخصوصياته.

عملت على مدى الستينات في برامج إعلامية من نوع المجلة المتلفزة وعندما شاركت في برنامج شعبي نال رواجاً لدى الجمهور الكبير، اكتشفت تشبُّث هذا الجمهور بمفهومه لشكل المرأة ودورها. على مدى ثلاثة أشهر تقريباً كان المسؤولون عن البرنامج التلفازي الذي عملت فيه، يُبلغونني أنهم يتلقون كل يوم اتصالات هاتفية تعلمهم باعتراض المشاهدين على شكلي. كان يقال «ما هذا المخلوق الذي ليس بنتاً ولا صبياً». «كيف تتجرأ هذه البنت على حلق شعرها كالصبية؟» «لماذا ترتدي لباس الرجال؟» وعلى هذا المنوال كان نسيج الاعتراضات، المسؤولون عن البرنامج ظنّوا أنني سوف أمتثل وأغيِّر شكلي. لم أفعل. وربما ما قرّر استمراري في العمل هو غزارة إنتاجي وجدية إحساسي بالمسؤولية واحترامي للمشاهدين وتفاؤلي بكونهم سيغيرون رأيهم فيّ. وهذا ما حصل بعد أشهر، لم يعد يعترض أحد على شكلي، واكتفى مَنْ يعترض بإعلان مأخذه على خطأ قد أقع فيه أثناء العمل.

أذكر هنا، أن المشاهدين كانوا ما يزالون يقفون من التلفاز وبرامجه موقفاً نقدياً، الويل لمن يلحن أو يتلعثم، أو يعطي معلومة غير دقيقة، أو يتساخف فيضيّع وقت الناس. لم يكن الجمهور قد صار متلقياً كما هو حالياً.

الصدفة أخذتني إلى التلفاز لكنها لم تكن صدفة بالمعنى الحقيقي. كنت صحفية وكان أحد البرامج بحاجة إلى صحفية امرأة. وتذكّرني أحد الزملاء وقبلت عرضه بمشاركته تقديم برنامج. ظننت أني أخضع لتجربة صوت وصورة. علمت في ما بعد أن ما عملته لم يكن تجربة لا تتعدّى حدود «الأستوديو». كنت أمام مشاهدي الشاشة الصغيرة بثياب أرتديها للعمل في الصحيفة وبوجه خالٍ من أية مساحيق. ربما تلك كانت الصدفة التي جعلتني أتجاهل رهبة العمل التلفازي ولا أحسب للصورة حساباً يُذكر.

أن أكون صحفية في الإعلام المكتوب أو المقروء أو المسموع في الوقت نفسه، ليس عملاً من نوع الإعجاز، طالما بقيت في إطار ممارسة مهنتي. أما أن أصير كاتبة إذاعية أؤلف مسرحيات قصيرة «استكشات»، فذلك شكّل تغييراً نوعياً في عملي. الصدفة حملتني إلى الكتابة الإذاعية. كُلّفتُ بإعداد وتقديم برنامج نسائي، حين كنت أعمل في مجلة نسائية. ولكوني، كما سبق وذكرت، أجهل تماماً الوظائف المقصورة على النساء، كتربية الأطفال والأعمال المنزلية وأجهل الاهتمامات النسائية، كوسائل التجميل والتأنّق وما شابه، ولرغبتي في إعداد برنامج إذاعي، وجدتني أخترع شخصيات وأُقيم في ما بينها حوارات. وكون شخصياتي تتحرّك في مجتمع يفعل

فيها وتفعل فيه تحوّلت استكشاتي إلى نقد لسلوكيات مجتمعنا.

شاركت في التمثيل لأضمن وجودي مع الممثلات المحترفات فأوضّح لهنّ نفسية شخصياتي وخلفياتهن الاجتماعية وهدفي من تحريكهن ضمن إطار مشهد تمثيلي يدوم حوالى ١٢ دقيقة.

هذا البرنامج كان عنوانه «فنجان قهوة» استمر حوالى خمس سنوات، انتهى بنهاية الستينات وكان يذاع ست مرات في الأسبوع.

قد يتساءل قارئ عن كيفية حصولي على ستّة مواضيع مختلفة كلّ أسبوع.

أعترف أني كنت في بعض الأحيان قلقة وخائفة من جفاف أفكاري. وكان علاجي في لحظات الخوف التجوُّلُ في الشوارع وفي الأسواق.

في الستينات كان الناس يعيشون خارج بيوتهم ليل نهار. كنا نشتري صحيفة اليوم التالي قبل أن نأوي إلى فراشنا.

وكانت بيروت مجموعة أسواق تعجّ بالمشترين والمُتفرِّجين الوافدين من كل أنحاء لبنان والزائرين عرباً وأجانب.

كان يكفيني التجوُّل بين سوق الطويلة وباب إدريس وسوق الإفرنج وسوق النورية وسوق السمك والدجاج وسوق الصاغة وسوق سرسق، حتى أحصد مواضيع تكفيني أسبوعين أو أكثر. عملي الإذاعي كشف لي عن أهميّة الصوت في اجتذاب الجمهور. قيل لي مراراً إن في صوتي أنوثة. لم يعجبني القول. لكن إن استطعت التحكّم بشكلي ومظهري نسبياً، فإني لن أستطيع تغيير رنّة صوتي في آذان المستمعين.

قرّرت أن الإعلام المكتوب هو الذي يمنح حرية أكثر للصحفي. الصحفي يتحكّم بنصه، يقرّر الإلغاء والإضافة، ينتقد نفسه ويحاسبها على كل كلمة. على الأقل يملك الوقت السابق لموعد تسليم الموضوع، أي لحين يفلت الموضوع من يده ويصير ملكاً لقارئه.

في الإعلام المرئي الصحفي أسير صورته وحكم الجمهور على هذه الصورة. وفي الإعلام المسموع الصحفي أو الكاتب ـ الممثل هو أسير صوته. الصوت يوحي من غير أن تتدخّل إرادة صاحب الصوت.

لست نادمة على أية تجربة إعلامية خضتها، كل تجربة أعطتني معلومات إنسانية واجتماعية وحياتية منوّعة وكثيرة. وأنا فضولية لن أرتوي في يوم من الأيام. ناحية واحدة في عملي بالإعلام المرئي جعلتني أحسّ أني تكبّدت خسارة فادحة. حصل أن نجح أحد برامجي واشتهرتُ، وصرت موضوع مراقبة من قبل الناس بعد أن كنت أستمتع أنا كثيراً، بمراقبتهم.

استنتاج آخر اكتشفته بعد سنوات من ممارستي لمهنتي يتعلق بالصُدف. قلت إن الصدفة أخذتني إلى كل من وسائل الإعلام الثلاث. وهذا صحيح. لكني على ما يبدو كنت مستعدة للسير في الطرقات التي عبّدتها الصدف. مُستعدّة ومجتهدة ومثابرة لأني لمست في العمل وحده مفتاح حرية قراري والتفرد بخياراتي الحياتية، حتى لو كان بعضها خاطئاً وثمنه غالياً.

تجربتي الإعلاميّة

توجان فيصل

في البداية لا بدّ من وضع تجربتي في العمل الإعلامي ضمن الإطار العام للمجتمع الأردني والعربي بعامّة لبيان المدلولات العامّة لتلك التجربة الخاصّة.

في مجتمعاتنا العربيّة، هنالك نمطية واضحة في دور المرأة تتجاوز الأسرة وتصل إلى عملها العام أينما تواجدت. وهذه النمطيّة ليست مجرد قرار دوغمائي من المجتمع يُفرض على المرأة وتضطر هي بالتالي إلى الخضوع له، بل هو أمرٌ وصل حدّ القناعة العامة بأنه الوضع الطبيعي للعالم وللكائنات البشرية، وليس مجرد عرف لمجتمع معيّن في زمن معيّن. وتغلغلت هذه القناعة في نفس النساء وعقولهن بذات العمق الذي تغلغلت به في نفوس الرجال وعقولهم، وأحياناً بأكثر.

وللأسف، فإن العديد من الحركات النسائية وداعيات حقوق المرأة فاقمن المشكلة بإصرارهنّ على «نسونة» أو «تانيث» العمل العام والمهني للمرأة، خاصة في المواقع المتقدمة أو الفاعلة ـ من مثل الإعلام والسياسة ـ بحجة أن المرأة التي تصل إلى تلك المواقع عليها أن تضع في قمة أجندتها قضايا المرأة، بل وأحياناً أن لا تتجاوز أجندتها تلك القضايا. وتوسم من لا تخضع لهذا الضغط بخيانة جنسها والتنكر له. بل ويزيد الابتزاز والعداء ليصل إلى حد اتهام تلك المرأة الفرد بأنها هي التي أضاعت العديد

من حقوق النساء، وكأن العالم كان بانتظار امرأة واحدة أو بضعة نساء يصلن إلى موقع القرار ليخّر صاغراً لرغباتهن أو احتياجاتهن أو قضاياهن...

وأقل ما يُقال عن هذا الموقف أنه يتضمّن سذاجة عالية. ولكنها سذاجة مُضرّة للغاية بقضية المرأة بالذات. والغريب أن اللواتي ينجين من تلك التهم هن النساء التقليديات في أدائهن المهني - خاصة الإعلامي والسياسي - والمتدنيات القدرة المهنية في تلك الحقول. فهؤلاء النسوة يدخلن الإعلام أو السياسة وهن لا يملكن مقوماتها المهنيّة الحقيقية. ففي السياسة يتم في الأغلب إدخال بعض النساء كنوع من الزينة وادعاء التقدمية ونفي صفة التخلّف عن ذلك المجتمع شرقياً كان أو غربياً. وفي غياب الديموقراطية بالذات تقوم الدكتاتوريات بانتقاء النساء الأقل قدرة وخبرة سياسية ليتسنى للدكتاتوريات ممارسة تسلطها المنفرد ضمن أجواء مريحة بعيدة عن المساءلة. ومن جهة أخرى يتم إدخال النساء في حقول الإعلام الرسمي إما بدواعي الشكل المحض أو عبر وساطات متنفذين من دون اعتبار للقدرات الإعلامية الخلاّقة، بل وتحاشياً لها، كما في تحاشي القدرات السياسية. وهؤلاء النسوة يلجأن للمنظمات النسائية وداعيات حقوق المرأة لمجرد ملء بعض من الفراغ الهائل في أدائهن وغياب جدول أولويات عندهن. ولكن معالجتهن لتلك القضايا تظل ضعيفة وأحياناً ذات أثر عكسي بسبب قيود المؤسسة الرسمية التي تدين هؤلاء النسوة لها وبسبب قصورهن المهني أيضاً...

وإذا كان هذا النمط لانتقاء المرأة الخطأ والأقل تأهيلاً يغلب في المجتمعات الشرقية، فإن إدخال المرأة للإعلام لأسباب تجارية محضة هو الأشيع في المجتمعات الغربية بالمقابل، وإن كان هذا التوجه قد بدأ يتسلّل أيضاً إلى إعلامنا بكثافة، خاصة في الإعلام المرئي وفي الفضائيات بالذات في السنوات الأخيرة.

فالمرأة الجسد التي بدأ ازدهار تجارتها وتدويلها عبر السينما التجارية والمجلات الإباحيّة، توسعت أسواقها مع الانحلال المتسارع للمجتمعات والقيم الذي أدّى إلى تحوّل الاستنكار والرفض أو درجات متفاوتة من التحفظ كانت تبديها تلك المجتمعات الغربية، إلى القبول بهذه الإباحية ثم إلى الدفاع عنها باعتبارها جزءاً من الحريّة الفرديّة. وكان انتقال الاتجار بالمرأة الجسد إعلامياً من السينما التجارية والمجلاّت المحصورة في أكشاك بعينها إلى الفضائيات سببه أن الأخيرة تخترق حواجز الرقابة والمنع التي تفرضها بعض الدول المحافظة. وفي عالمنا العربي تعتبر تلك الدول السوق الرئيسية التي يتوجه إليها أصحاب بعض المحطات الفضائية

لاستقطاب المشاهدين وبالتالي الإعلان.

وبالنسبة للمرأة فإن هذه التجارة تحرس دورها الدوني في أبشع صورة. فإذا كانت الصورة النمطيّة التقليدية المحافظة للمرأة فرضت عليها أن لا تتجاوز دورها كأم وربة بيت وزوجة، وبالنتيجة الفعلية والحقيقية كخادمة وطباخة لأفراد الأسرة، وإذا كان ما يسمى ببرامج «المرأة» و «الأسرة» قد حصر نفسه في تعليم المهارات الخدميّة تلك ووسائل العناية الشخصية بباقي أفراد الأسرة بدءاً بالطفل الذي يحتاج للرعاية وانتهاء بالبالغ القادر على خدمة نفسه، إضافة إلى بعض المواعظ اللغوية في حوارات لا تزيد عن كونها مجرد كليشيهات تكرس دور المرأة هذا وتبقيها في حدوده... إذا كانت هذه حصيلة الصورة النمطيّة المحافظة، فإن ما يحدث مؤخراً باسم التحرّر هو بالمقابل إعادة للمرأة إلى دور دون هذا كلّه اتفق الرجال على تسميته بأقدم مهنة في التاريخ متناسين مهن المرأة البدائية في الزراعة وصنع البيت وحتى الحكم ولعب دور الكاهنات والقساوسة... إعادتها إلى تجارة الجسد في أبشع صورها وأكثرها علانية.

ما عرضته هو القاعدة. وهنالك دائماً استثناءات نعرفها في الإعلام الغربي والعربي على السواء لنساء بارزات حُزن تقدير واحترام المشاهد والقارئ، كما حُزن تقدير المؤسسات السياسية والإعلامية ويحسب لهنّ ألف حساب... ولكن القاعدة تتوسّع وتنتشر مؤخراً بأكثر مما تتسع مساحات الاستثناءات التي نجدها هنا وهناك قائمة بفعل جهود فردية. وأقول «فردية» لأن المعول الأساسي في هذا كله هو موقف المرأة الفرد في مهنتها ونظرتها لذاتها ولدورها في المجتمع والعالم. ومجموع المنظمات النسائية في العالم العربي لن تتمكّن ولو اتحدت من منع الفتيات من الدخول في طوابير متنافسة إلى حقول الدعاية والاستعراض الرخيص للجسد، ما لم تتغيّر نظرة الفتاة ذاتها لذاتها.

وأعود هنا لتجربتي الشخصية في الإعلام لأضعها في هذا الإطار وأقارن نتائجها بما هو شائع في السوق. ولعل أهم نتائجها والتقييم النهائي لتلك النتائج أنها أقنعت الشارع الأردني المحافظ والتقليدي بانتخابي كأول امرأة لمجلس النواب الأردني، بل وجاء انتخابي منفردة، رغم أن عدداً لا بأس به من النساء نزلن لثلاث انتخابات متتالية، مع العلم بأن مجلس النواب من أكثر الهيئات تقليدية لاحتكاره شبه التام من قبل القوى العشائرية من جهة ورجال الدولة والقوى العسكرية والمخابراتية من جهة أخرى. وهي جميعها تمثّل قطاعات إمّا تقليدية متحجّرة أو

فاسدة، وهي في الحالتين تدافع عن الوضع القائم وتقاوم التغيير والتطور حفاظاً على مصالحها واحتكاراتها.

عند تخرّجي من الجامعة بدرجة بكالوريوس في الأدب الإنكليزي عام ١٩٧١، بدأت كغيري من الخريجات البحث عن عمل كخطوة تالية حتميّة. ولم يكن التلفزيون ضمن مخططاتي. ولكن تصادف أن أعلن التلفزيون الأردني عن مسابقة لاختيار مذيعات، وهي أول مسابقة تعقد لهذا الغرض رغم وجود مؤسسة التلفزيون لسنوات. وكان ذلك ضمن حملة إصلاح إداري يقودها مساعد المدير العام الجديد السيد محمد سعيد أبو نوّار الذي قال إننا نفرض كل موظفي الدولة على الناس بالوساطة والمحسوبيّة، ولكن لا يجوز أن نفرض عليهم الوجه الذي سيطل عليهم في بيوتهم عبر الشاشة بالمعيار نفسه... وهو وإن صنّف ـ مبدئياً ـ المذيعة على اعتبار أنها «وجه» أولاً، ثم تأتي معايير الثقافة واللغة واللياقة، مما يقع أيضاً ضمن الفهم التقليدي لدور المرأة، إلاّ أن حملة إصلاح إداري محدودة كهذه كانت وسيلة وسبباً لدخولي إلى مؤسسة تقليدية، وبهذا تمكنت من قلب الكثير من موازينها وثوابتها... وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن أي إصلاح عام إداري أو سياسي أو اقتصادي له انعكاس مباشر وإيجابي على المرأة وأوضاعها وفرصها وحقوقها، مما يستدعي أن تُعمّم جداول وأولويات العمل النسوي لتشمل جذور مشاكل التمييز والتخلّف وليس فقط نتائجها المتعلقة بالمرأة حصراً وأحياناً بشكل سطحي.

والطريف أنني لم أعر هذه المسابقة أي اهتمام ولم أضعها ضمن خياراتي. ولكن عدداً كبيراً من الأصدقاء والأقارب والجيران بدأ يلحُ عليّ، بل ويستنكر عدم تقدمي للوظيفة الجذابة، منطلقين في هذا من اعتقادهم هم أيضاً أن المذيعة وجه جميل لا أقل ولا أكثر وأنني أملك وجهاً يضمن لي الفوز!!! وإذا كنت قد استمعت لنصيحتهم، فإن السبب كان كثرة الضغط العام إضافة إلى قلّة الخيارات التي تراوحت بين التعليم أو العمل في السلك الدبلوماسي ـ والأخير أنفر منه بطبيعتي لجموده وتكلّفه بدرجة عالية ـ أي أن ما هو متوفر من أعمال أخرى يتناقض مع طبيعتي التي تنفر من العمل الروتيني كما تنفر من العمل المحدّد والمقيّد لحرية الإبداع. وحتى التحديد الزمني بالدوام الرسمي كان منفراً، فطبيعتي كشاعرة ورسامة كانت تستتبع طول السهر وعدم انتظام ساعات النوم مما يجعل الدوام الرسمي المنتظم أشبه بالعقوبة. بينما عمل التلفزيون يغلب عليه العمل المتأخر أو المسائي.

وحين تقدمت للمسابقة فوجئت بوجود مئات الفتيات بحيث امتلأت بنا صالات وأيضاً أروقة محطة التلفزيون. وفي النتيجة فزت ضمن دزينة من الفتيات، ثم تم تنقيحنا إلى سبع، ثم إلى ثلاث بعد تدريب أسبوعين فقط وامتحان مبكّر فرضته أنا مهددة بالانقطاع عن التدريب الذي وجدته غير مجدٍ، وتمّ تعيين الناجحات تحت التجربة لمدة ستة أشهر، وبعد شهرين فصلت اثنتان وثبّتُ وحدي... وهو أمر طريف لأنه يبدو وكأنه جزء من قدري ـ لمن يؤمن بالأقدار ـ إذ كنت أيضاً الوحيدة التي وصلت بالتنافس إلى مجلس النواب. والأطرف أنني لم أفز في حياتي بشيء عن طريق الصدفة أو اليانصيب، حتى لو كان السحب على بطاقات حفلة مغرقة بالهدايا والتبرعات بحيث يفوز بعض الحضور أكثر من مرّة، وكل ما حصلت عليه من جوائز أو نتائج جيدة كانت نتيجة عمل وجد ومنافسة. وهذا ما عزّز إيماني بقيمة العمل وإعداد الذات وصقلها وتنميتها بشكل دائم، من دون الاعتماد على الحظ أو الوساطة، كضرورة بقاء، إضافة إلى إيماني القديم بها منذ طفولتي كقيمة إنسانية أساسية للنمو والتطوّر. ومعلوم أن تحقيق الذات يحمل من المتعة أكثر حتى مما يحمل من الفائدة.

وعند بدء ممارستي للعمل، وأنا بعد تحت التجربة، رفضت القيام بالدور الديكوري للمذيعة. واجتمعت بنائب المدير العام ذاته في موعد مسائي ـ ليتفرّغ للاستماع إليّ ـ وقلت له أنني لن أجلس أمام الشاشة لمجرد أن أسرد تسلسل البرامج، لأنها سوف تتسلسل بي وبدوني. ولن أقرأ نصّاً إنشائياً تافهاً كتبه غيري ولا يقنعني، ولن أقرأ نشرة أخبار أعلم أنها أفرغت من المحتوى بل وأدخل عليها زيف وكذب وتحريف... فسألني نائب المدير عمّا أوقعه إذاً؟؟ فاجبت بأنني أريد أن أكون مسؤولة عن برنامجي مسؤولية كاملة بدءاً بالموضوع والضيوف إلى آخر تفصيل فيه. لا أقول إلاّ ما يقنعني وبأسلوبي ولا أضع أسئلة مسبقة ـ كما كنت أرى غيري يفعل ـ بل أدير الحوار حسبما يقودنا الموضوع وتطوّره.

وواضح أن طرحي هذا كانت فيه على الأقل سذاجة في الصياغة تدل على عدم معرفة بتصنيفات المهن الإعلامية وتوزيع المسؤوليات، ومن عوامل سذاجته أنني طرحت مطالبي عالية السقف وأنا بعد تحت التجربة ولم أبدأها عملياً. ولكن سذاجتي كان لها حدود، فتوقعي الغالب هو أن يعتبرني نائب المدير مغالية في شروطي وبالتالي يدفعني طبعي الحاد ـ جداً آنذاك ـ إلى تقديم استقالتي أو حتى المغادرة دونها لأن التعيين لم يكن قد تمّ...

ولكن المفاجأة كانت أن الرجل سُرّ مما سمع وقال إن هذا ما يبحث عنه، وأحال إليّ برنامجاً ثقافياً يقوم بعرض كتاب، وكان البرنامج فاشلاً جماهيرياً وفنياً مما دفع بنائب المدير إلى إيقافه. وقال لي: افعلي ما شئت!!

وكانت البداية جيّدة. فهو عمل ضمن ما أعرف وما أحب. عمل بالكتاب وثقافة الكلمة التي كنت أعشقها وعبر وسيلة أحببتها هي الكاميرا، ولجمهور أحببته وأحبني لسنوات بعد ذلك... وما نزال... وكان هذا «الحب» سبباً رئيسياً في توفيقي. فعندما نعمل ما نحب نتقن ما نعمل. وما درست الأدب إلاّ لحبي للكتاب والكلمة. وقد أحببت الوسيلة الجديدة للتعبير والاتصال التي امتهنتها بعد تخرجي لدرجة أنني بعد سنوات طويلة، وحين تركت العمل التلفزيوني طوعاً واحتجاجاً على فساد الدولة، ترجمت هذا الحب إلى رسالة ماجستير عنوانها «السينما والتلفزيون كوسائل تعبير أدبيّة»، نلت عليها درجة الماجستير في الأدب الإنكليزي.

ومن عرض الكتب انتقلت إلى مساحات أوسع للتواصل فتحتها لي رغبتي الجامحة في التجريب عبر وسيلة الاتصال الجديدة بالكاميرا. وبدأت بالريبورتاج وعلى سوية عالية من اختيار المادة أهلتني لها ثقافة الكتاب، وسويّة تقنية عالية أهّلني لها اهتمامي بالكاميرا وتلهفي لاكتشاف كل إمكاناتها وتوظيفاتها.

ومع أنني عملت مع جهاز حكومي، فإن نجاحي الجماهيري قوّى من موقعي في الجهاز، فعملت بالتالي ـ في السنوات الأولى على الأقل ـ ضمن أجواء مريحة ومتعاونة. وأهم الأسباب أولاً، أن الظروف يسّرت لي اثنين من أكثر الرجال تقدمية في نظرتهم للمرأة، ومن أكثرهم إيماناً بالعمل وتقديساً له ونزوعاً للتجديد والتطوير، وهما نائب المدير العام السيد أبو نوّار، الذي كان وراء المسابقة، ووزير الإعلام الذي بدأ عهده في الإعلام معي تقريباً وهو السيد عدنان أبو عودة الذي تسجّل له إضافات نوعية في إدارة التلفزيون بالذات تمركزت حول تشجيع المبادرات الخلاّقة، رغم كل التحفظات السياسية التي يحملها البعض ضدّه كونه سبق وعمل في جهاز المخابرات كما عمل لاحقاً مندوباً للأردن في الأمم المتحدة. وكلا المنصبين يستوجب الاعتذار عنه لدى القوى السياسية كافة التي تدين مجمل إدارة السياسة الداخلية والخارجية للدولة...

والسبب الثاني في توفير الراحة لي في بداية عملي هو أنني جمعت اثنين من المقومات المتناقضة والمطلوبة لدى الدولة. أولهما إتقاني العالي لعملي بل وموهبتي فيه، والثاني هو جهلي شبه التام بالسياسة وابتعادي شبه التام عنها بالمقابل. وما

أدّى إلى هذا الجهل والابتعاد عن السياسة هو مجمل عوامل منها خلفيتي الاجتماعية التي اتسمت بالوضع الاقتصادي المريح كون والدي أحد الملاكين الصغار إضافة لكونه موظفاً كبيراً في الدولة، وأيضاً الوضع الاجتماعي المريح كامرأة كون الشراكسة (وأنا من أصل شركسي) يعطون مساحة من الحريّة والاحترام للمرأة تعتبر واسعة بكل المعايير الشرقية وحتى ببعض المعايير الغربية، من دون الوقوع في الانحلال والاستغلال الغربي. فهي حرية تحترمها الأسرة والمجتمع الشركسي بأسره ويضمنون متكافلين سلامتها. إضافة إلى أن والدي بالذات كان ذا فكر ليبرالي منفتح مما جعل دائرة الحرية والثقة التي أولاها لنا تتجاوز المجتمع الشركسي الضيّق إلى المجتمع الكبير الواسع. وكان لهذه الحريّة والثقة أثر إيجابي على نمو شخصيتي وتطوير قدراتي في زمن مبكّر. ولكن غياب بعض المعاناة التي سيست نساء غيري أدّى إلى لحاقي بهن بعد أن تعرفت على مشاكلهن ومشاكل المجتمع عامة. وحتى في المجال السياسي كانت الأقلية الشركسية لا تخضع لأي ضغوطات ومظالم سياسية مما لحق بقطاعات أخرى من المجتمع الأردني، فالشراكسة كانوا موالين وموضع ثقة النظام المطلقة لدورهم الكبير في إدخال الأمير عبد اللّه إلى الأردن وحمايته وترسيخ أركان عرشه. والحقيقة أن الشراكسة لم يكونوا قطباً في أية عداوات أو صدامات سياسية لأنهم أيضاً لقوا قبولاً وتقديراً لدى المعارضة السياسية والقوى النضالية لدورهم في حروب فلسطين حيث قدموا العديد من الشهداء ولرفضهم أن يكونوا طرفاً في أي تفريط سياسي جرى آنذاك.

وإذا قبلنا أن للتسييس عوامل خاصة وعامة، فإن العوامل الخاصة التي أدّت إلى ضعف تسييسي آنذاك هي طبيعة اهتماماتي الثقافية العالمية التي اخترقت حواجز الزمان والمكان والجغرافيا واللغة بحيث اعتبرت نفسي مواطنة عالميّة. ومثل هذه الاهتمامات الثقافية والفنية والأدبية، كالفلسفة والآداب العالمية والفنون، كانت من النوع «الطبقي» أو «الترفي» الذي يُبعد الإنسان عن تفاصيل الحياة اليومية. وبعد طول انغماسي في هذه الثقافة أصبحت أقدامي بعيدة بعض الشيء عن الأرض ليتسنى لرأسي الإطلال من علٍ على كل هذه المساحة الثقافية العالمية... حتى جاء الإعلام، وبالممارسة لمست الأرض فعلاً لأول مرّة وبدأت أتلمّس قضايا الناس الحقيقية والمعيشية، حتى أنني مررت بما يشبه الردّة، فانقطعت إلى حد بعيد عن البرامج والأنشطة الثقافية المحضة، وانتقلت إلى التركيز على القضايا الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية المعيشية، أي إلى «الثقافة التطبيقية» إن جاز التعبير. أما

القضايا السياسية المحضة فقد كانت ممنوعة منعاً باتاً في ظل الأحكام العرفية آنذاك.

وكانت بداية صدامي مع الدولة عندما بدأت أعي البعد السياسي والجذور السياسية للمعاناة التي أحاول إيجاد حلول لها عبر برامجي. وإذا كنت في هذا قد سبقت احتياطات الدولة والتففت عليها لبعض الوقت مستثمرة قدراتي الإعلامية في التسلّل إلى القضايا السياسية عبر واجهة القضايا الاجتماعية والإنسانية، فإن التصادم الحقيقي نتيجة لتسييسي وتسييس عملي بالتالي كان آتياً لا محالة، وبالذات عند المساس بأهم وأغلى مكاسب السياسيين الفاسدين، وهو المال العام الذي كان ينهب من دون حسيب أو رقيب...

وقبل الدخول في الحيثيات السياسية لصدامي مع الدولة، لا بدّ من الإشارة هنا إلى أنني لم أقدّم طوال عملي كموظفة في الإعلام الرسمي أياً من برامج «المرأة» أو «الأسرة» المعروفة... فقط، ومن منطلق حبي الشديد للأطفال الذي بدأ مع ولادة أول طفلة لشقيقتي، أنتجت سلسلة وثائقية عن الأطفال كانت غير تقليدية في تناولها لقضايا الطفولة واعتبرت محطة أخرى ثوريّة - ولكنها ناجحة جماهيرياً - في التغيير والتطوير اللذين حاولت إدخالهما إلى العمل التلفزيوني. أما برنامج «قضايا المرأة» الذي قاد إلى إشكالات جذرية مع التيار الأصولي اتخذت أبعاداً سياسية، فهو عنوان فرض عليّ من قبل مديري التلفزيون - حين فرضني عليهم وزير إعلام جديد مؤمن بقدراتي وضرورة إعادة استثمارها - وكان هذا الانتقاء لموضوع المرأة الذي ظنّوا أنّه آمن لأنه عادة خامل، سببه خوفهم من خوضي في قضايا سياسية بعد أن ظهر تسييسي واضحاً، فلو خضت في السياسة بطريقة ترفضها الدولة سيفقد هؤلاء المديرون مقاعدهم، أو تتزعزع من تحتهم، ولو خضت فيها بطريقة ناجحة - في رأي الدولة - قد يفقدون أحد هذه المقاعد بإحلالي محل أحدهم، خاصة أنه سبق وكنت مديرة في الإعلام، واعتبرت إدارتي ناجحة وهو ما سأتحدث عنه الآن...

كان من مظاهر الاعتراف الرسمي بنجاحي، والرضى العام عن محصلة المخاطر مقابل المكاسب التي حصلت عليها الدولة من عملي، أن وصلت إلى مراكز إدارية متقدمة أيضاً ولم أبق محصورة في إنتاج البرامج وحده. ومن هذه المراكز منصب مساعد مدير الإعلام التنموي ثم مديرة الإعلام التنموي، وكان تعييني مديرة في الوزارة الثانية للسيد عدنان أبو عودة أيضاً والذي كان يُغلب تقديره لأدائي الإعلامي على عوامل حيطة الدولة إلى الدرجة التي يقدّر عليها... وهي درجة لها حدود أعرفها.

وحين توليت إدارة الإعلام التنموي اكتشفت، أو بالأحرى أكملت اكتشافي، لقضية فساد مالي تتم في الدائرة كنت أشك في حدوثها منذ فترة ولكن أوراقها وتفاصيل الاتفاقات الشفوية بشأنها كانت تخفى عليّ لدرجة أن بعض الاجتماعات كانت تعقد خارج الدائرة كي لا يجازفوا بحضوري لها كمساعد للمدير. وتتعلق القضية باتفاقية إعلامية مع صندوق الأمم المتحدة للتنمية والسكان UNDP ـ قيمة التمويل المقدم لها تسعة ملايين دولار. ولمعرفتي الجيدة بالإدارة الإعلامية وتفاصيل عمليات الإنتاج الإعلامي، وبأفضل بكثير مما يعرفه المديرون الذين تعاقبوا قبلي على الدائرة، سهل عليّ اكتشاف وسائل سرقة هذا المال وأعددت فيها تقارير رفعتها بالتسلسل الإداري الواجب، إلى أن اكتشفت أنني أمام أحد أمرين: إمّا تورط المسؤول الذي أصل إليه في تلك السرقة، أو مع السارقين في صفقات أخرى، أو عجزه عن إيقافهم لأنه لا يملك القوة والحصانة اللازمين... وبالتالي قررت رفع التقرير إلى ولي العهد آنذاك الأمير حسن. ولكن مدير مكتب الأمير المعيّن في ذلك المنصب بسبب نفوذه العشائري واعتماد الملك على العشائر لدعم عرشه مقابل الأحزاب والتنظيمات السياسية التي كانت تجد نفسها في خندق المعارضة لا محالة في ظل الأحكام العرفية والفساد، مدير المكتب ذاك تجرأ على عدم تقديم التقرير لولي العهد، وبدلاً من ذلك أعلم به كافة المتورطين، وهو ما عرفته عن طريق اتصالات بعضهم بي في محاولة لتبرئة أنفسهم!!

وبعد معركة طويلة وخاسرة مع الفساد، دفعت فيها حياة طفلي الوليد الذي جاء قبل موعده نتيجة للجهود المضنية التي كنت أبذلها في تلك المعركة، قرّرت ترك العمل الإعلامي الرسمي والتفرّغ للدعوة للديموقراطية والإصلاح السياسي باعتبار أن الحل السياسي هو وحده المجدي.

ورفضت وزارة الإعلام والتلفزيون إنهاء خدماتي، مما يعني أن استقالتي هي الحل. وبحسب القوانين والأنظمة العرفيّة القائمة آنذاك، كانت الاستقالة ستفقدني كامل حقوقي. وهذا الرفض والمماطلة ومحاولة دفعي للتنازل عن حقوقي هو ما أغضبني وجعلني أقرّر الانقطاع عن العمل من دون إستقالة مما يعني فقداني لوظيفتي وعدم تمكني من العودة للعمل في أية مؤسسة أو دائرة حكومية من دون قرار من مجلس الوزراء!! وكتبت لولي العهد رسالة أخرى أعلن فيها عن نيتي هذه وأقول له أن هذا إجراء متعمّد من طرفي كي لا يغريني أي عامل يطرأ مستقبلاً بالعودة للعمل مع دولة أجهزتها بهذه الدرجة من الفساد.

ولأن مدير مكتب ولي العهد كان قد تغيّر ـ نقل إلى منصب محافظ ـ وصلت تلك الرسالة بما فيها من إشارات إلى سابقاتها وإلى التقارير التي رفعتها عن الفساد. وفوجئت باتصال مكتب ولي العهد هذه المرة طالباً نسخاً أو حتى ملخصاً عن تلك التقارير إن كنت أملك النسخ الأصلية. وسرّني هذا وسارعت إلى إرسال النسخ كاملة. وجاء الردّ بأن سمو الأمير سيتولى التحقيق والمتابعة، وأنه يسألني عن الموقع الذي أريده في الإعلام ليعطى لي ـ ذلك أنني نقلت لأكثر من موقع ذي اسم كبير ومفعول قليل في محاولة لإسكاتي ـ وكان ردّي أنني صادقة في خيبة أملي في العمل مع الدولة وأنني فعلاً أريد فصم علاقتي بها لأعمل منفردة.

وجاء إنهاء خدماتي. وكان ذلك مكسباً معنوياً جزئياً للمعركة السياسية ضد الفساد والعرفيّة. فحقيقة مكتسباتي من خدمة أحد عشر عاماً لم تتجاوز ألفاً وخمسمائة دينار أردني كتعويض لإنهاء الخدمة. وخسرت اختيارياً راتباً يوازي راتب وكيل وزارة ـ كونه ضمن كادر التلفزيون الخاص ـ ومنصب مدير وسيارة برقم حكومي وكل الامتيازات التابعة للمركز والنجومية التلفزيونية التي تجعل الكل تقريباً يحب النجم ويحاول خدمته، بينما النجومية السياسية تكسب صاحبها من الأعداء الكثيرين، ومن سلك خطي يكسب أخطر الأعداء على الإطلاق وأطولهم باعاً في العنف. ولكنني اخترت المكسب السياسي وكنت أول من أجبر الدولة على إنهاء خدمات موظف خارج عن طاعتها، رغم القوانين والأنظمة التي وضعت بالذات لمؤسسات معينة، منها التلفزيون، لإجبار مثل ذلك الموظف على التخلّي عن كل شيء في عملية عقابية لتمرده على فسادها. وكانت تلك أول معركة سياسية أكسبها ضد الدولة العرفيّة، على صغرها...

ومع أنني عدت للعمل مع التلفزيون مرة أخرى كمديرة للدائرة الثقافية، إلاّ أنني استقلت بعد شهرين فقط لاكتشافي أن شيئاً لم يتغيّر هناك واقتصر تعاوني مع المسؤولين لاحقاً على برامج بالقطعة.

وبعد العودة المنقوصة للحياة الديموقراطية عام ٨٩، تمكّنت منذ بداية عام ٩٠ من الانتقال إلى نوع آخر من العمل الإعلامي وهو كتابة العمود السياسي. وساعد على هذا الانفراج النسبي في الصحافة الذي فرضته الجماهير على الدولة وعلى الإسلاميين الذين تمتعوا بأغلبية في مجلس النواب ساهمت في تقنين حرية الصحافة لصالحهم في الفترة ما بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩٠، وعند بداية أزمة حرب الخليج التي كان للشارع القومي واليساري فيها موقف مغاير للدولة والإسلاميين، وهو

موقف أدى إلى دفع الدولة والإسلاميين للرضوخ، ظاهرياً على الأقل، للتحرك الشعبي العارم...

وساعدني تاريخي الإعلامي الذي اتسم بمجمله بالجدية والوقوف مع قضايا الإنسان والوطن والأمة على الفوز في الانتخابات النيابية عام ١٩٩٣ لأكون أول امرأة والمرأة الوحيدة التي تصل إلى هذا المنصب في تاريخ الأردن. وحتى أثناء نيابتي، وبسبب تعتيم أو تزوير أجهزة الإعلام الرسمي لمواقفي، وأحياناً استعمال القمع الأمني الشُرطي والمخابراتي في منع الهيئات من استضافتي لإلقاء المحاضرات أو الحوار ومنع الناس من الوصول إلى مكان المحاضرة، فقد بقيت كتاباتي السياسية في الصحف أهم وسيلة اتصال مع الجماهير وأيضاً أهم وسيلة نضال تعادل وتفوق أحياناً نضالي داخل مجلس أغلبه مزوّر أو مدجّن... وإن كانت مقالاتي قد تسببت في إغلاق بعض الصحف لفترات، فإن مردود الرواج الإعلامي لتلك الصحف لذات السبب عوّض أصحابها عن خسائرهم. وبعض أصحاب الصحف وجدوا تعويضاً من نوع آخر هو شراؤهم بأسعار متفاوتة من قبل الدولة ومخابراتها...

وأعود إلى ما بدأنا به لأؤكد على أهمية قناعة المرأة ذاتها بقدراتها ومساواتها وعدم وجوب تخصيص أدوار محدّدة لها في أية مهنة تختلف عن أدوار الرجل. فالنجاح «المهني» هو وسيلة المرأة للتساوي في سوق العمل كما في كل أوجه الحياة وأنشطتها. وهذا النجاح لا يتأتى إن لم تكن المهنة ذاتها في قمة أولويات المرأة. أمّا تسخير المهنة لأغراض ضيّقة من مثل تأنيثها، فهو سبب مضمون للفشل. ولا تختلف المرأة التي لا ترى في مهنتها إلاّ وسيلة لخدمة قطاع النساء منفرداً وقضايا المرأة ومصالحها حصراً عن زملاء نواب لي وضعوا العشيرة وخدمة مصالحها ومكتسباتها وخدمة دائرتهم الانتخابية الضيّقة في قمة أولوياتهم ونسوا ضرورة «مهنتهم» كنواب، فأطلق عليهم لقب «نواب خدمات» فشلوا فشلاً ذريعاً حيث نجحت أنا وحفنة من النواب المسيّسين الذين اعتبرنا «نواب أمّة» كما جاء تعريفنا في الدستور الأردني.

ولكن هذا لا يعني التنكر لأية قضية عادلة، ومنها قضايا المرأة. ولكن التقوقع هو المرفوض في الإعلام كما في السياسة. فالمرأة في كليهما نموذج وتوضع تحت المجهر، ونجاحها أو فشلها ينعكس إيجابياً أو سلبياً على فُرص غيرها من النساء.

ولا يعني السعي للنجاح المهني في حقول سيطر عليها الرجال تاريخياً،

كالسياسة والإعلام، إنكار المرأة لأنوثتها والتشبه بالرجال. فالنجاح ليس سمة الرجال لنتشبه بهم، بل إن فشل رجال العالم العربي على الأصعدة كافة وفي كل الحقول هو ما قادنا إلى ما نحن فيه من تخلّف اجتماعي وتدهور اقتصادي وتبعية سياسية. وليس في هذا أية شوفينية ضد الرجل، بل على العكس أستطيع القول إن علاقتي بالرجال كانت سليمة وصحيّة مئة بالمئة مهما كان دورهم في حياتي بدءاً بأبي وأقاربي الذكور ولاحقاً بزوجي الذي تزوجته عن حب ثم ابني الوحيد وأصدقائي العديدين بالمقابل الذين بعضهم في مرتبة إخوة لي ولو لم تلدهم أمّي... كل هذا اعتز به وهو ما أنشأني من دون شعور بالعداء أو النقص. بل كنت دوماً شديدة الاعتزاز بكوني فتاة بدءاً بطفولتي التي كان يسمح لي فيها أن ألعب مع الأولاد في ألعابهم النشطة المعروفة، وأضيف لهذا امتياز أن ألعب بالدمى والمطبخ مما كان الأولاد يحرجون من عمله وإن رغبوا صادقين فيه. وأذكر أنني أعلنت مرّة أنني محظوظة لأنني فتاة وبالتالي أستطيع لبس الفساتين الجميلة والملونة، إضافة إلى لبس البنطال والشورت وحتى استيلائي على ملابس شقيقي، مما لا يتاح له الرد بمثله...

ومن هذه البساطة والعفوية الطفولية في تبيّن مزايا أنوثتي، انتقلت لما هو أعمق عندما وقعت في الحب وسعدت بالتالي أنني امرأة تملك أن تشعر بهذه الطريقة تجاه هذا الرجل وأن تحصل عليه بمباركة المجتمع والعالم بأسره. فإذا كان بإمكاني أن أتفهم، موضوعياً ونظرياً، حب الرجل للمرأة قبل وقوعي في الحب، فأنا بعد ذلك لم أعدّ أقدر حتى على تخيّل أن أولد في الجانب الآخر...

وحين أنجبت طفلي الأول، وفي تلك اللحظة المعجزة، شعرت حقيقة بتميّز هائل لكوني امرأة عبر الإحساس بالأمومة هذا. وفهمت لماذا كانت المرأة إلهة معبودة في العهود السابقة الأقرب إلى الطبيعة في كل تعاملها مع الكون اللاهوتي والمعيشي على السواء... أحسست فعلاً وليس نظرياً بقدسية الأمومة حين شعرت أنني أحلّق فوق العالم لا لأنني أضفت إلى «ذكور» العائلة ذكراً جديداً، بل بغض النظر عن جنس المولود ـ كنت وزوجي نؤثر فتاة كطفل أول ـ وليس لما أتوقعه من طفلي من ميّزات ومواهب، بل لمجرد أنني أنجبت ومررت بتجربة الأمومة، وحتى قبل أن تقع عيناي على المولود وقبل أن أحتضنه...

وحتى في الجانب الشكلي المحض، لم أفقد اعتزازي بأنوثتي وعنايتي بها، فمع رفضي الحاسم لأن أكون مجرد وجه على الشاشة، إلاّ أن عنايتي واعتزازي بالشكل

الذي ورثته والمظهر الذي عنيت باختياره من دون المبالغة والإسفاف ومن دون الإهمال من جهة أخرى، لازماني طوال عملي الإعلامي والسياسي. وأصررت على هذه العناية والاعتزاز وأنا أقاوم حملات الأصوليين الشرسة على أثناء عملي الإعلامي والسياسي، وكلّها حملات حاولت إعادتي إلى وضع المرأة الجسد والمرأة الفتنة التي يجب أن تدفن في البيت وتبقى لطاعة الرجل ومتعته. ففي حين حاولوا تصوير مظهري على أنه عامل فتنة وإفساد، أصررت عليه ودافعت عنه باعتباره صورة حضارية. فالإنسان الذي عني بجمال وأناقة ونظافة بيته وسيارته ومدينته لا يمكن أن يهمل ذات يوم ضرورات الجمال والأناقة والذوق في مظهره هو نفسه أو أن يخجل من ذلك المظهر الجميل إلاّ إذا كان لديه مركب نقص. وقد حاول الأصوليون زرع مركب النقص فيّ وزاد عداؤهم حين لم يجدوا التربة اللازمة لدي... بل على العكس وجدوا امرأة أشعرتهم بالنقص عبر إيمانها بذاتها وبأنوثتها كجزء من هذه الذات.

ذاكرتي على الطرقات...

منى سكرية

لقد أحببت الصحافة المكتوبة إلى الحد الذي أبعدني عن الاهتمام بعالَمَي المرئي والمسموع... ومع التطور الذي أصابهما فإنني ما زلت على قناعتي.. فالمكتوب هو «الأثبت»، «الأبقى»، والموصل الجيد لحرارة الكلام...

فالمرئي والمسموع يذهبان «عبر الأثير» كما اتجاه بثهما.

آراء كثيرة تثير نقاشاً حول دورَي المرئي والمسموع وعن أخذهما الحيز الأكبر من جماهير «المكتوب»، لكن هذه الآراء ستبقى كثيرة ومتفاوتة طالما أن الحياة باقية في ديناميتها وتنوعها.

والذي أبقاني على قناعتي التي ذكرت هو «التفليسة» الرسالية والذوقية والثقافية التي تبدت في محطات التلفزة في لبنان مجال متابعتنا، وكيفما اختلفت أسماء هذه المحطات فإن المضمون يتقارب «بتسطيح» المواضيع قيد المعالجة.

قناعتي هذه، منعتني من قبول عروض عمل كثيرة في المرئي وإن كنت قد «خضتها» لسنة تقريباً في المسموع وكانت محببة...

* * *

أعترف بداية، بأن صعوبة ما، إلى تعكرٍ في المزاج أصاباني منذ عام، منذ أعوام، أفقدا بعضاً من حميمية علاقتي الخاصة بمهنة البحث عن المتاعب...

وأعترف صدقاً، والصدق من ميزاتي التي بقدر ما تريحني فهي تنغّص نباهتي، أنه أشعرني بسذاجة ستظهر وأنا أروي تجربتي الصعبة في علاقتي مع «الآخرين»...

أروي لنفسي، أن سلوكاً ما طرأ على تربيتي ـ قناعاتي، فبتُّ أميل إلى قبول «الآخر»، احترامه، الاعتراف به.. واكتسبت مع مرور الزمن، ومرور «الآخرين» من هنا وهناك القدرة على التنبه أكثر فأكثر إلى هذه المفردة التي طرأت حديثاً على ثقافتي ومشاعري.

كنت في بدايات عملي... أؤمن أن الكل واحد، وأنه متماهٍ مع «آخرين».!

لِمَ لا؟! فالحرب في ديارنا جميعاً.. والقصف من فوق سطوحنا.. والنار ستلتهم حتماً بريق عيوننا. والأنوار ستطفأ، والكل سيغرق في الظلام بما فيهم «الآخرون»..

وسينبثق فجر يوم آخر، له تاريخ بدءاً من اليوم، فالشهر، فالسنة، لينتهي ويتجدد وما نزال إلى أن؟!

جمعتني مهنة الصحافة وكنت في سجلاتها بُعَيد انقضاء سنتي الجامعية الأولى في كلية الإعلام الجامعة اللبنانية، مع «آخرين» تجذرت وما تزال دهشة اللقاء الأول بيني وبينهم، التي تحصّنت عبر سنوات القصف والخوف بحلاوة الذكريات ومرارتها.. وفيض موثق بالاحترام والمودة، ولكن...

لقد أوقعتني المهنة بالكثير من المفاجآت، وعملت بي جراحاً في النفس لمّا تندمل.. وتناقضت مع الذي به أؤمن كسلوك حياتي ـ إنساني و... مصالح «الآخرين».

فصرنا أكثر من «الكل الواحد» الذي توهمته في بدايات ركوب المخاطر..

كنت قد ولدت وتربيت في بيت والدي الذي يتعاطى العمل السياسي، وبين محيط ينفعل ويتفاعل مع المحيط الواسع والأوسع، المتدفق أفكاراً وعقائد، وإيديولوجيات، وصوراً لزعماء أفرحني حفظ أسمائهم باكراً.. وفي سن مبكرة كنت قد جمعت صوراً من الصحف المتوافرة في بيتنا لجمال عبد الناصر، غاندي، نهرو، تيتو، كنيدي المقتول، بن بلا الثائر، لومومبا المضطهد، وعدد من الفدائيين الفلسطينيين الأوائل في نقائهم، وجميلة بو حريد الجزائرية وكثر... إلى قصائد لشعراء طبعوا بدايات تكويني النفسي والفكري، فكانت فلسطين وافريقيا والزنزانات المظلمة، إلى اعتزازي بانتماء ثقافي قومي لا أرغب بتجاهله «كرمال الآخرين»... مع احتفاظي بكمية الدموع التي تساقطت من عيوني يوم هزيمة الخامس من حزيران

١٩٦٧، تلك الهزيمة المستدامة من يوم بدأت تاريخاً ورمزاً ونتائج، لأن من حولي كان يُجهش بالبكاء، إلى دموع الفرح وقد وعيتها بنتائج حرب تشرين ١٩٧٣، مأخوذة بالنظر إلى صور الرئيس حافظ الأسد التي أخذت أكثر فأكثر بالإطلالة.

إذن، كانت بداياتي مسلحة برصيد ما معرفي، بالعواطف ولا أدينها، والانتماء إلى ثوابت أفكار ترسخت، وتفاصيل أفكار نمت، ونضجت، وتطورت، فتغيّر مفهومي الخاص تجاهها، دونما أي تغيير ينال جوهر شخصي ككائن بشري...

وتسلحت أيضاً بعنصري الحشرية والاندهاش، فوفرت لي الأولى ملاحقة الحدث المهني، وملازمته. كما أمدّني الثاني بعنصر الاستمرار، وفيه - من دون نكران - بعض من الطفولة التي أحب..

أما الجرأة التي طبعت أعمالي طيلة سنوات، فقد صقلت جرأة الذات عندي في السؤال، والتقصي، دونما زلل في انتهاك ذات الآخرين وكرامتهم، وأيضاً جرأة المغامرة والنزول في أزقة المتحاربين...

أستطيع بناءً على عنصري الحشرية والاندهاش - والجرأة كذلك - أن أقسّم عملي إلى قسمين: الحوار وفيه طموح السؤال اللامحدود(وقد أصدرت كتاباً حوى ما يناهز المائة حوار سياسي كنت قد أجريتها ما بين ٨٢ و٩٤ بعنوان: «حاورتهم منى سكرية»).. والمغامرة وفيها تأريخ شبه يومي لوقائع الحرب الأهلية: قتلى، جرحى، جثث، خراب ودمار، أسلاك كهربائية متقطعة، مياه متدفقة في الطرقات، سيارات محترقة.. دموع غزيرة، موت روحي.. وحب بقاء..

عيناي التقطتا صوراً، واكبتني عبر أقلام وأوراق ومطابع سوداء الحبر كما الكثير من تلك السنوات...

في اجتياح ٨٢ عايشت الحصار الإسرائيلي في بيروت وكتبت في مجلة وزملاء لي ما شاهدنا، ثم توقفت المجلة عن الصدور، فلم نهجر الحصار..

كثيرة هي ذكريات حقبة الاجتياح الإسرائيلي في العام ٨٢.. والأكثر منها تلك الأسئلة حولها، عما سبقها: لماذا كانت الشوارع مسرحاً لاقتتال الفصائل «المتوحدة» ضد العدو الواحد؟ ولماذا سَهُلَ تراجعها أمام جحافل دباباته؟ ولماذا رخصت عقولنا أمام مفاوضات جرت خلف الكواليس؟ ولماذا ولماذا؟

أذكر أن شعوراً لديّ كان أقوى من الموت. لم أتذكر الموت. لم آبه له.. تنقلت

مع مصوّر إلى طوارئ مستشفى الجامعة الأميركية التي بقيت وحيدةً في معالجة الطارئ من الأحداث. «فالبربير» و «المقاصد» وكلتاهما عريقتان في الخدمات الطبية بات الوصول إليهما متعذراً لقربهما من خطوط التماس التقليدية التي قسمت قلب بيروت إلى بيروتين.

وانتقلت والمصور إلى المباني التي دمرتها الطائرات المغيرة كليّاً أو جزئيّاً في منطقة برج أبي حيدر. ورأيت بأمّي عينيّ، وكنت على شرفة منزل أحد الأصدقاء في منطقة تلة الخياط، سقوط المبنى المؤلف من ثماني طبقات (إلى جهة مبنى معهد الإنماء العربي) وكان سبق ذلك غارتان لطائرتين إسرائيليتين ألقتا صواريخاً ضخمة الحجم باتجاه أعمدة الطبقة السفلى للمبنى.. وفي ثوانٍ.. كان سقوط المبنى بكامله قبل تفكك طبقاته لحظة انبطاحه أرضاً. وأتذكر لهفتي للوصول إلى حيث لم يعد مبنى «عكر» موجوداً في محلة الصنائع بفعل القنبلة الفراغية الحديثة التقنية والاستخدام.

في ٨٢ قبعنا في ملجأ مبنى مجلة الشراع، وانضم إلينا كثير من الجيران والأصدقاء من الرافضين خيانة بيروت بتركها تحت القصف.

إلى العمل لإصدار مجلّة، عملت على تلقي الاتصالات الهاتفية في السنترال.. ثم غادرت لأسبوعين إلى قريتي في منطقة بعلبك وعدت لتكون المرة الأولى التي أعبر فيها حاجز بلدة صوفر الإسرائيلي.. وسيراً على الأقدام كانت «النزهة» من غاليري سمعان إلى المصيطبة في بيروت الغربية. لنعش المحاذير من نوع آخر.. فالاجتياح تسلل إلى عروق المدينة.. الخطاب السياسي تبدل في انقلابات متسارعة... وعلى تخوم العاصمة في صبرا وشاتيلا، ثمة المئات من البطون التي بُقرت، والعيون التي سُمِلت، والأعناق التي ذُبحت، والروائح التي فاحت من الجثث بسبب الوحشية التي ارتكبت.. كان الوجوم مسيطراً، ورائحة الموت آخذة بالهجوم على المدينة، ليكون يوم ١٧ أيلول مشهوداً في انطلاقة مقاومة الاحتلال الإسرائيلي للعاصمة من مقهى «الويمبي» في الحمرا.

في العام ٨٣ «تحايلت» في تحقيقاتي الميدانية على قرار الرقابة على الصحف..

فالتحقيق الميداني المكتوب هو الأكثر تعبيراً عن الاحتجاج أو الاعتراض، أو التورية أمام مقص الرقيب. فالتحقيق الذي يكتب واصفاً أوضاع الناس الاجتماعية والاقتصادية هو «احتجاج» و «تحايل»، والتحقيق الذي ينقل صرخات رؤساء تحرير الصحف الصادرة يومها دفاعاً عن الحريات هو «مقاومة». وكذلك الإشارة المتكررة

إلى جمود الأنشطة الثقافية هو أكثر من «تحايل» وأفعل من استنكار..

في العام ٨٣ أجريت سلسلة مقابلات مع مسؤولين وعاملين في أجهزة الدفاع المدني العاملة على الأرض حول تجربتهم ومشاهداتهم والأبقى أثراً في ذاكرتهم، لتشكّل مجزرة صبرا وشاتيلا محور تلك المقابلات «للتحايل» على قرار منع أي ذكر لتلك المجزرة في وسائل الإعلام يومها (ستصدر هذه المقابلات إلى جانب وقائع موثقة بالأسماء عن مجزرة صبرا وشاتيلا في كتابٍ للدكتورة بيان نويهض).

في العام ٨٤ وفي ساحة بلدة بحمدون وفي أثناء ما عُرف بحرب الجبل وقفت أحصي عدد الجثث المحترقة، الملقاة على الأرض.. كما لو أنه مشهد تلفزيوني مفبرك! أو كما لو أنني لا أنتمي إلاّ إلى عالم مهنة البحث عن المتاعب.. بلا مشاعر.. فكأنما الجثث أرقام وليست لبشر كانوا على قيد الحياة.

وعلى جسر الأولي كنت من أوائل من شاهد «الميركافا» الإسرائيلية وهي تستدير استعداداً لتنفيذ الانسحاب الأول في شباط ٨٥.

وفي العام ٨٦ لازمني الموت مرّات عدة على حواجز الميليشيات المتقاتلة بيننا في الأزقة.

قبل ذاك العام، كانت المناطق التي اصطلح على تسميتها «بالوطنية والإسلامية» قد شارفت على الجنون.. أحياء بلا أحياء.. أرزاق مقطوعة لحساب «أبو» و «أبو» و «أبو».. منازل قيد الاستباحة ساعة يهوى «زعيم» هذا الحي أو ذاك.. أرواح قد لا تعود إذا ما قرر «مجهول الهوية» أن يأخذ مهنة عزرائيل..

سنوات من اليأس والبؤس والقرف عاشتها زواريب المناطق الوطنية والإسلامية ببطولات ديوكها في لعبة يومية كانت مميتة.. والمميت حقاً يومها كانت شعارات تلك المرحلة المعمدة بالدم.. واللجان التي استولدت لجاناً.. سنوات بدأت ما بعد أحداث السادس من شباط ٨٤ (رفض الحال السياسية التي كانت سائدة)، إلى شباط ٨٧ (يوم دخول الجيش العربي السوري لإعادة الأمن والهدوء)، تميّزت بالاضطراب والاقتتال والدموية و «التسلية» بكل أنواع الأسلحة والشعارات الممجوجة.. لتبدأ بعدها أزمات سياسية جديدة تمثّلت بعدم انتخاب رئيس جديد للجمهورية (صيف ٨٨)، لتصبح أكثر دموية في العام ٨٩ مع إعلان رئيس الحكومة العسكرية حينها العماد ميشال عون «حربه التحريرية»، فخلت بيروت مجدداً من ناسها، وفرغت الطرقات المؤدية إليها، فَسُلِك طريق الجنوب وحيداً، مكتظاً بأهله المهجرين أصلاً بفعل القصف الإسرائيلي، ومعهم كثر من الطارئين في لجوئهم.

في العام ٨٧ «اكتشفت» القضية الأرترية في معاقلها. بعد ١٨ ساعة عبور في الشاحنة في الصحراء السودانية.

وفي العام ٨٨ «دوّنت» يوميات عدد كبير من النواب وعبر الهاتف يوم تعطل انتخاب رئيس جديد للجمهورية...

وفي العام ٨٩ تحديت الموت مراراً، وحلمت بالمأكل والنظافة..

في بيروت، كما لو أنني كنت أقوم بزيارة صباحية إلى حيث مواقع المتقاتلين.. وأمزجتهم.. ومزاجية قراراتهم في الحوار الرصاصي المادة.. وما علينا سوى اختيار كتابة الخبر.. فذاك المقاتل المدجج بسلاحه لم ينِ يشهر مسدسه باتجاهي لولا سرعة نباهة إحدى زميلاتي فأوقفته.. وذاك الذي أرغمنا على التراجع متراً واحداً برصاصة أطلقها أرضاً، فارتدت إلى جهة متراس الرمل.. وتلك الرصاصة التي اخترقت عنق زميلي المصوّر رمزي حيدر على جبهة بلدة سوق الغرب وكنا قد انتهينا من مشاهدات طبعت الذاكرة في حرب الجبل.. أو عندما اختبأنا كالفئران نطلب اللجوء خلف أبواب حديدية نال منها الصدأ في أحياء مدينة طرابلس القديمة قبل أن تنال منها أسلحة المتقاتلين...

وفي العام ٩٠ كنت قد غادرت إلى فرنسا بعد اختياري كواحدة من ٥ صحافيين من دول العالم..

ذاكرتي على الطرقات... أعرف كل الدروب من وإلى العاصمة، من وإلى حيث مكاتب العمل والورق الساخن مطبوعاً صبيحة اليوم التالي..

أعرف أشجار منطقة الجنوب، وشتول تبغها، ومواقع حصار الإسرائيلي لبلداتها والأسلاك الشائكة التي سورت أعمار المئات من الشباب والشابات... إلى إلى...

أجزم، ـ أحب صدقي وأمقته في آن لاقتراب وصفه بالسذاجة ـ أنني ما اتكأت إلى مخدة وثيرة بأكثر من رؤية متاريس الرمل المنتشرة بدلاً من آنيات الزهور.. وأنني ما استكنت إلى أهلي وعائلتي بأكثر من الأوقات التي احتميت فيها بين زملاء وأصدقاء كانوا الأهل وعنصر الاطمئنان والدراية...

أذكر دقيقة بدقيقة، تلك السنوات، أية فكرة طرأت على مخيلتي؟! وأي جنون انتابني فرحلت باكراً والمصور إلى حيث مواقع الخطر. كل الأسئلة التي سألت، وكل الأشخاص الذين التقيت، وحاورت واستفززت، فأخرجتهم من اعتصامهم بالصمت

لأخرج «بعناوين بارزة» متميّزة إلى الآن... أو لأخرج من عند بعضهم إلى لا رجعة. (شحطوني).

ولن أنسى ما قاسيناه جميعاً في حصار هنا، وانزواء على أدراج المؤسسات التي عملت فيها اتقاء لقصف مباغت، فعشت وزملائي ندرة المأكل، ندرة رهافة الجلوس إلى الأرائك، شح نعمة المياه الساخنة على أجسامنا المتلحمة «بالجينز»، و «دلع البنات» في ارتداء الملابس الأنيقة وآخر صرعات الموضة..

بيني وبين بنطلون الجينز تاريخ من السنوات.. ولكم أدهش ارتدائي الفستان الكثير ممن يعرفونني «بأخت الرجال».

«أخت الرجال» أو «ما من شاب غيرها» صفة ألصقت بي تحبباً، واعترافاً من المسؤولين عني بقدرتي على تحمل الصعاب، والمغامرة تحت القصف، والكتابة في أشد الأوقات حراجة...

وأعترف أن شعوراً بالتحدي، والثقة بالذات تملكاني جراء تلك التسمية..

لم يكن في الأمر انتقاص من أنوثتي. فهي مني ولي. ولم يكن في الأمر إضفاء سمة غير إنسانية على سلوكي.. على العكس.. لقد اختبرت قدرتي على المساواة الإنسانية مع «الآخرين» وربما تفوقت.. فكنت أكثر جرأة من الكثير من الشباب وكنت الأكثر ابتكاراً لأفكاري وهنا حقيقة التحدي.. وكنت من الحائزين على منحة مؤسسة رويتر العالمية للعام ٨٩ ـ ٩٠ كواحدة من ٥ صحافيين في دول العالم..

كنت مندهشة لوقوع الاختيار عليّ وكنت آمنة لتبرير المؤسسة لاختياري، أي لاختيار ما كنت قد كتبت بشكل يومي لوقائع القصف والعذاب «والتشرد»... ومع ذلك لم أحز حتى الآن ما يرضي سنيّ تعبي.. بسبب كثر من «الآخرين».. ما يرضيني هو حيازة مودة واحترام من يملكون الاحترام... وهم يختلفون عن صنف آخر من البشر تستوي لديهم الكفاءة مع الانتهازية.

ذكرت أنه بسبب كثر من «الآخرين» لم أحز منصباً ما وأؤكد أن أسباباً تداخلت فيها مصالح أصحاب المؤسسات لعبت دوراً رئيسياً، فنحن لسنا بمجتمع يمارس قيم الديموقراطية، إنما ندعيها تغطية.. فكلنا نرث ونورث.. وبعضنا يعاني عصبية ما لكفاءة غير موجودة.

* * *

كنت أحوز قدراً كبيراً من محبة من حولي في العمل... فليس في سلوكي

الشخصي ما يسيء... بل في سلوكي المهني ـ الشخصي ما يجعلني أشعر بأن هناك اتكالاً رئيسياً عليّ.. وفي ذلك تكمن سعادتي.. وفي ذلك تنعدم روح العداء والعدائية.. من جهتي على الأقل، ولا أنكر أنني شعرت بها من «آخرين»..

كنت أختار المصاعب.. فكنت أعمل. ولم أختر الركون إلى الطاولة والكرسي.. فلا أعمل..

في العمل الأسبوعي (مجلة الشراع) ولمدة ست سنوات، عملت وكأنه عمل يومي: في إجراء الحوار السياسي، في كتابة التحقيق الميداني، في التطفل على بعض المواد ذات الطابع الثقافي، في تغطية المؤتمرات إلخ... وهذا ما قمت به يوم انتقلت إلى جريدة السفير (أوائل شباط ٨٦ ـ أيلول ١٩٩٤).

سنوات من المعارك المتتالية، المحاور الملتهبة قصفاً وقنصاً.. الأحداث السياسية غير المفهومة.. الهدنات التي تخترقها قذائف التصريحات النارية.. كانت هذه أبرز عناوين عملنا اليومي في تلك السنوات، فكيف لهذه العناوين أن تقرأ دونما جندي مجهول ـ معلوم..

إن الفترة ما بين بدايات عملي منتصف العام ١٩٨٠، وأواخر أيلول ١٩٩٤ تكاد تكون نسخة واحدة متكررة: إنها الحرب ونتائج الحرب.. أي إنها الموت.. أي إنها الدوران حول الذات.. ومع ذلك، كنت ممن يكرر صباحاته.. من العمل في التاسعة حيث فنجان القهوة والسيجارة والتقاء الزملاء، بمثابة الحقن المنشطة ليوم محموم بالمشاكل..

ويتبع بعدها لهاث خلف أحداث وقعت.. إلى عودة مسائية تتأخر بقرار من الحدث نفسه، ولطالما كنا نعود مع بدايات لون الفجر الأزرق إلى بيوتنا..

مهنتي اختصرت سنوات عديدة من عمري.. صرنا توأمين.. أحببتها وأحبتني.. أعطيتها وأعطتني.. جعلت الزمن كثيفاً في ذاكرتي، ونقلت عبرها إلى ذاكرة الزمن أحداثاً ومشاهد ووقائع، تدل على عاديات تلك الفترة.

اقتربت بتماهٍ مع موقع الحدث، وقرّبتني الأحداث من لحظات الموت ولي معها محطات: قذيفة سقطت بعد مروري لحظات.. وأخرى سقطت قبل وصولي إلى مكان معين.. سيارة ملغومة انفجرت، فكنت في عداد أوائل الواصلين لقربي من موقع الانفجار.

تعودني الذاكرة مراراً إلى سنوات خلت. بل لأقل إنها طالما شكلت الحديث المشترك وزملائي كلما اجتمعنا..

في العام ٨٩ وعلى أدراج مبنى جريدة «السفير» انتظرنا بشغف قطعة الجبنة، وكنا نهلل حقاً لوصول ربطة الخبز.. وكنا نستفيق بفرح، لولادة «العدد» المنبعث من بين الموت.. وبجهودنا..

لم أشعر في مهنتي بتمييز بين «صبيان» و «بنات» وإن كانت الغلبة في موقع القرار دائماً للرجال، كي لا أقول للصبية؟! إلى أن تأكدت أن هذا هو واقع الحال أيضاً..

فالجهد، والإجهاد، والقسوة في العمل اليومي، لا يكفي للانتقال من طاولة إلى أخرى.. بل على العكس، فإن ما حصل معي أنني انتقلت إثر سنوات مميتة من التعب إلى لا طاولة.. إلى لا مكان.. فقط إلى ذاكرة تضجر من الاستكانة.. مع بطءٍ مهني أصابني منذ عام... منذ أعوام... لتبدل طرأ على وظيفة المهنة بذاتها.. وما شاب أجواءها من رماديات.. إلى صعود مريب في تراتبيات العمل دونما «عامل» حقيقي.. فكان أن طغى شعور الاستسلام لدي، والترقب بحذر لا يشوبه أي هدوء..